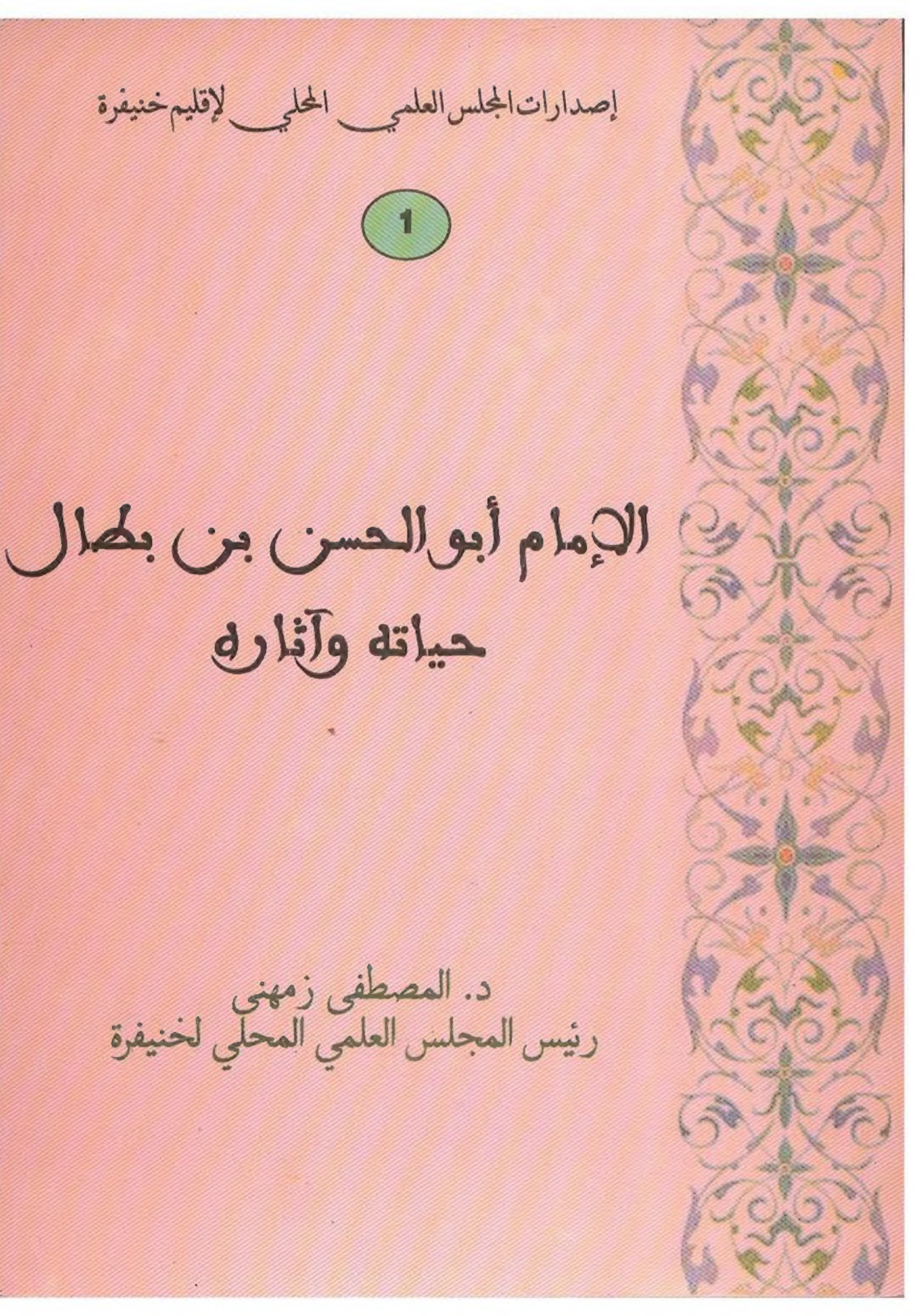


إصدارات المجلس العلمي المحلي لإقليم خنيفرة

1

الإمام أبو الحسن بن بطال حياته وآثاره

د. المصطفى زمهنى
رئيس المجلس العلمي المحلي لخنيفرة

إصدارات المجلس العلمي المحلي لإقليم خنيفرة

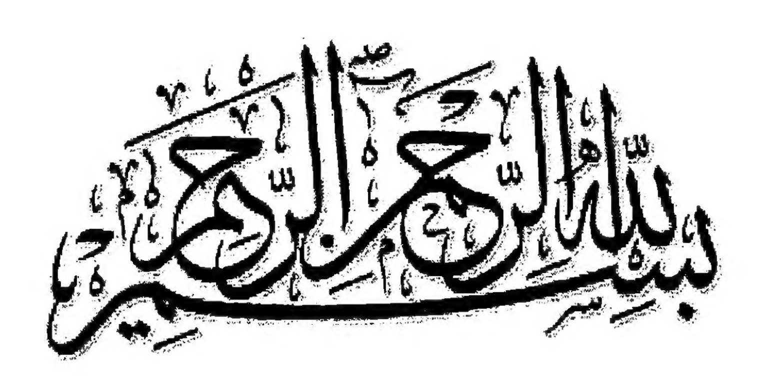
1

الإمام أبو الحسن بن بطال

حياته وآثاره

د. المصطفى زمهنى
رئيس المجلس العلمي المحلي لخنيفرة

الكتـــاب: الإمام أبو الحسن بن بطال: حياته وآثاره.
المؤلف: د. المصطفى زمهنى.
المنشورات: إصدارات المجلس العلمي المحلي لخنيفرة.
المطبعة: مطبعة سيكما ـ أطلس(خنيفرة)
SIGMA-ATLAS
الطبعة: الأولى 1433هـ - 2012م.
الإيداع القانوني: 2797 MO 2012
ردمك: 978-9954-31-628-3.


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أمي وأبي

إلى أهلي

إلى أساتذتي

إلى زملائي وزميلاتي

إلى كل من علمني حرفاً

إلى كل مسلم يوحد الله تعالى حيث كان

أهدي هذا البحث المتواضع راجياً من المولى

عز وجل أن يكتب له التوفيق والقبول.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على أطيب خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فليس يخفى على أهل العلم ما يزخر به الغرب الإسلامي من علماء مبرزين رصعوا صفحات التراث الإسلامي بتواليفهم الفريدة واجتهاداتهم المتميزة التي لا يستغني عنها أحد من الباحثين والدارسين في مختلف المجالات العلمية.

ولعل من أهم الحقول العلمية التي سطع فيها نجم المغاربة وعلا فيها كعبهم الحديث النبوي الشريف، إذ انفردوا بمصنفاتهم الماتعة ومؤلفاتهم الرائعة مما جعل إخوانهم المشارقة يفيدون منها ويتخذونها موارد أساسية في تآليفهم واختياراتهم العلمية.

ومن هذه النجوم الطوالع التي أضاءت سماء دنيا العلم والمعرفة بزغ نور الإمام الجهبذ ابن بطال الذي بصم المكتبة الحديثية بمداد من ذهب من خلال جهوده العلمية التي بذلها لتقريب معاني كلام الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في ثنايا كتابه المفيد شرح صحيح البخاري الذي يعد من أقدم المصادر التي شرحت الجامع الصحيح للإمام البخاري.

وإن الناظر في كتابه شرح صحيح البخاري ليلمح بشكل جلي الخدمة الجليلة التي أسداها للعلم وأهله سواء من حيث الجهود المستفرغة لشرح أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، أو من حيث الإفادات الغزيرة التي نهلها من بعده من علماء المغرب والمشرق على السواء.

وفي هذا السياق، ارتأيت - من باب الوفاء لعلمائنا الأجلاء - إصدار هذا البحث «الإمام أبو الحسن بن بطال: حياته وآثاره» الذي يعرفنا بعالمنا الإمام ابن بطال وبجهوده الجبارة في خدمة الحديث النبوي الشريف وامتدادات عطاءاته الفكرية فيمن بعده.

وسيتم التمثيل لهذه الآثار العلمية بنموذجين، وهما:

- النموذج الأول: مصنفه شرح صحيح البخاري .

- النموذج الثاني: أثره فيمن بعده، أو بعبارة أخرى تأثر من بعده به. وقد وقع انتخاب الحافظ ابن حجر نموذجا لهؤلاء لأنه أكثرهم نقلا عنه وإفادة منه .

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن يأتي في مقدمة وفصلين وخاتمة.

- مقدمة:

-الفصل الأول: وفيه ترجمة الإمام ابن بطال وتعريف بكتابه شرح صحيح البخاري.

- الفصل الثاني: ويختص ببيان أثر ابن بطال فيمن بعده: الحافظ ابن حجر نموذجا.

- خاتمة: وهي عبارة عن جملة من الاستنتاجات.

ولا يفوتني أن أشكر كل من أعان على إخراج هذا العمل تقويما وتوجيها سائلاً الله تبارك وتعالى أن يجازي الجميع ويبارك في الجهد.

كما أعتذر عما شاب هذا البحث من هفوة أو تقصير، فهو وبدون شك بحاجة إلى تقويم وتصحيح ليستوي على سوقه ويبلغ أشده بإذنه تعالى، وهذا شأن كل عمل بشري الذي من سماته النقص، ذلك أن المرء كلما كتب كتابا في يومه إلا وبدا له في غده ما يحمله على إعادة النظر فيه.

وقد كتب أستاذ العلماء البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني معتذرا عن كلام استدركه عليه « إنه قد وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا وها أنا أخبرك به وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل .

وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1] .

«ربنا لاتواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»[2] .

والحمد لله رب العالمين.

1- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم لصديق بن حسن القنوجي ج1 / 72.

2- سورة البقرة الآية 286 .

الفصل الأول:

الإمام ابن بطال و كتابه شرح صحيح البخاري.

وفيه مبحثان ، وهما :

- ترجمة الإمام ابن بطال.
- التعريف بكتابه شرح صحيح البخاري.

المبحث الأول: ترجمة ابن بطال.

قبل الحديث عن ترجمة ابن بطال كما أوردتها كتب التراجم، يحسن إلقاء نظرة عامة عما ميز عصره، أعني خلال نهاية القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، وذلك بالتطرق إلى الظروف السياسية والفكرية والاجتماعية التي اتسمت بها الأندلس يومئذ.

ولعل الإلمام بهذه الظروف من شأنه أن يبصر القارئ ببعض الجوانب المتعلقة بحياة ابن بطال، وتسعفه في فهم العديد من جوانب شخصيته مما له علاقة بمؤلفاته وتوجهاته الفكرية.

وعليه، سيكون هذا المبحث مفرعا إلى مطلبين:

- المطلب الأول: لمحة مختصرة عن الظروف السياسية والفكرية و الاجتماعية لعصر ابن بطال.
- المطلب الثاني : ترجمة ابن بطال .

المطلب الأول: لمحة مختصرة عن الظروف السياسية والفكرية والاجتماعية لعصر ابن بطال.

العنصر الأول: الظروف السياسية.

لقد نشأ ابن بطال في بيئة سياسية مضطربة، ففي زمانه انطفأت شمعة الدولة الأموية تاركة فراغا سياسيا خطيرا تولدت عنه صراعات وتطاحنات على الحكم بين العديد من المتدخلين: البربر والعرب والموالي، انتهت باستفراد ملوك الطوائف على البلاد.

يقول المقري: «وانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيرا بأمرها ·منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة

وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، فخلعهم و أخلى منهم الأرض»[3] .

إن التمزق السياسي الذي عرفته الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين جعلها تثير انتباه الأعداء الذين كانوا ينتهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على البلاد.

وقد أثر الصراع السياسي بين أطراف متعددة بشكل سلبي على السلطة المركزية التي فقدت هيبتها وأضحت عاجزة عن التحكم في زمام الأمور، الشيء الذي جيش أطماع الطامعين الذين كانوا يرون في الأندلس فريسة حان أوان قسمتها.

وهذا ما صوره محمد عبد الله عنان حين قال: «وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر، والفتيان العامريين، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين، و كانت تلك الأطماع تجيش في الواقع، في صدور

3 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني ج1 / 438 .

أولئك الذين رأوا في ضعف السلطة المركزية، وذيوع الخلاف والفوضى، فرصة يمكن انتهازها»[4] .

العنصر الثاني: الأوضاع العلمية و الثقافية.

أما من الناحية الفكرية والثقافية، فقد عرفت الأندلس انتعاشا كبيرا حيث نشطت الحركة العلمية والثقافية وقامت جامعات ومكتبات فازدهرت مختلف الفنون. وقد زاد الأمر حيوية الاهتمام الرسمي الذي حظيت به الثقافة والفكر من قبل حكام الأندلس.

يقول محمد عبد الله عنان: «استمرت النهضة الفكرية التي ازدهرت في عصر الناصر، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (350 هـ - 366 هـ) وازدادت قوة وازدهارا.

وكان الحكم، وهو الخليفة الأديب العالم، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة. وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة، واحتشاد أكابر الأساتذة بين عقودها، وإنشاء المكتبة

---

4 - دولة الإسلام في الأندلس ص 658 العصر الأول - القسم الثاني الخلافة الأموية والدولة العامرية.

الأموية الكبرى، التي بذل الحكم في إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة ألف مجلد، من مختلف أصناف العلوم والفنون. و كثرت المكتبات العامة والخاصة، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده في ذلك العصر»[5] .

لكن التفكك السياسي الذي عرفته البلاد أضعف الحركة العلمية وقلص من الاهتمام الفكري والثقافي، إذ انشغل الناس بالفتن والاضطرابات التي عاشتها البلاد وقتئذ.

يقول محمد عبد الله عنان: «ولما انقضى عهد الدولة العامرية، وانهارت الخلافة الأموية واضطرمت الفتنة في الأندلس، انكمشت الحركة الفكرية، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية وتعاقب الرياسات»[6] .

---

5 ـ دولة الإسلام في الأندلس ص 701 العصر الأول ـ القسم الثاني الخلافة الأموية والدولة العامرية.

6 ـ المرجع نفسه ص 705.

العنصر الثالث: الأوضاع الاجتماعية.

كان المجتمع الأندلسي يتألف من أجناس متعددة وعناصر متنوعة. وقد ساهم التفكك السياسي الذي عرفته البلاد في بروز طبقات متدابرة ومتصارعة على السلطة والرياسة. ومن أبرز هذه الطبقات[7] :

- العرب: وهم الذين فتحوا البلاد وأقاموا بها ونشروا ثقافتهم ولغتهم وتحكموا فيها وبسطوا سلطانهم.

- البربر: وقد كان لهم فضل كبير في فتح الأندلس بالإسلام والاستيلاء عليها. إلا أن ما تعرضوا له من سوء المعاملة أدى بهم إلى التمرد على أمراء البلاد فقاموا بعدة ثورات.

7 ـ انظر « حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري أبو محمد عبد الرحمان بن عتاب نموذجا» إعداد الأستاذ خالد الصمدي ص 45 ـ 50 وكتاب « مدرسة الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر في الحديث والفقه وآثارها في تدعيم المذهب المالكي بالمغرب» إعداد الأستاذ محمد بن يعيش ج 1/ 117 ـ 121 .

- أهل البلد: وهم السكان الأصليون الذين أخذ منهم المسلمون الأرض واستولوا عليها. وقد كانوا فريقين: فريق تمسك بديانته القديمة، وفريق أسلم فعرفوا بالمستعربين أو المسالمين.

- اليهود: وقد عاشوا هم كذلك جنبا إلى جنب مع المسلمين، وتقلدوا مناصب هامة. وكان لهم دور بارز في الحياة العامة بالأندلس.

- الرقيق: وقد اشتغلوا بالتجارة والفلاحة، وكانوا يدفعون الخراج للدولة. كما كانوا متمتعين بحقوقهم المدنية.

- الجواري: وهن اللواتي جلبن خلال الغزوات الكثيرة التي غزاها المسلمون وقد كانت لهن مشاركة أدبية وفنية مهمة.

يقول الدكتور إحسان عباس: «وبالإضافة إلى هذه العناصر من بلديين ومولدين ومسالمة وشاميين وأمويين كان هناك عنصران آخران من أهل الذمة هما: اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، أما اليهود فقد وثق المسلمون عند الفتح وضمهم

في كل بلد مفتوح مع حامية إسلامية، وقد تركوا لهم حرية العقيدة وحرية التنظيم الداخلي للجماعة اليهودية، وأما أهل الذمة من النصارى فقد ذكرنا كيف أن العرب الشاميين نزلوا على أموالهم، وكان لهم قضاتهم كما كان لهم مطران مركزه طليطلة، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم، غير أنه لم يطل بهم حتى استعربوا لسانا وزيا»[8] .

وبالرغم من هذا التنوع العرقي كانت العلاقات الاجتماعية متسمة بالتسامح والاحترام المتبادل ولاسيما مع أهل الذمة.

وهذا ما وصفه الدكتور إحسان عباس بقوله: «وعلى وجه الإجمال كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة بالأندلس إلا حين كان الذميون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي»[9] .

---

8. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ج 1/ 11.
9. المرجع نفسه ج 1 / 11.

المطلب الثاني: ترجمة ابن بطال.

بالرغم من تعدد المصادر والمراجع التي ترجمت لابن بطال، فإنها لم تحط بجل جوانب شخصيته سواء من حيث تاريخ ولادته أو من حيث نشأته التعليمية...، إذ اكتفت بإشارات قليلة في التعريف به، مما يجعل تحديد موقعه بين الأعلام مهمة لا تخلو من صعوبة.

وللتعريف بابن بطال - حسب ما توفر من أخباره بكتب التراجم -سيأتي هذا المطلب وفق العناصر الآتية:

- العنصر الأول :اسمه ونسبه .
- العنصر الثاني :شيوخه وتلامذته.
- العنصر الثالث :مصنفاته.
- العنصر الرابع :عقيدته.
- العنصر الخامس :ثناء الناس عليه .
- العنصر السادس :وفاته.

العنصر الأول: اسمه و نسبه.

هو أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال[10] القرطبي، يعرف بابن اللجام، أصلهم من قرطبة، وأخرجتهم الفتنة إلى فلنسية. ولم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته.

عرف بأسماء متعـددة، و هي:

- ابن اللجام: قال عياض: «يعرف بابن اللجام أصلهم من قرطبة وأخرجته الفتنة».

---

10 ـ عالم من علماء القرن الخامس الهجري يرجع في ترجمته إلى:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج 8 / 160 .
- الصلة لابن بشكوال ج 2 / 414 .
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ج 30 / 233 - 234.
- سير أعلام النبلاء للذهبي ج 18 / 47 .
- الوافي بالوفيات للصفدي ج 21 / 56 .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ج 2 / 105 - 106 .
- نفح الطيب للمقري 3 / 450 - 451.
- كشف الظنون لحاجي خليفة 1 / 546.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي ج 3 / 283 .
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن مخلوف ج1 / 115 .
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للحجوي ج 2/ 210.
- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي 2 / 264.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب و المستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي 4 / 285.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية لرضا كحالة ج 7 / 87 .
- تاريخ الأدب العربي لكارل برو كلمان 3 / 167 .

- اللجام: قال ابن مخلوف: «ويعرف باللجام».
- ابن اللحام كما في الصلة.
- ابن النجام: قال الذهبي: «ويعرف بابن النجام».

وليس في تلك المصادر ضبط لهذه الحروف ولا توجيه لها، كما أن كتب الحديث المتخصصة في مشتبه الأسماء كالمشتبه في أسماء الرجال للذهبي وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر لم تشر إلى هذا الإشكال.

إلا أن الرجوع إلى كتب اللغة يسعفنا في تقريب دلالات ومعاني هذه الكلمات.

- فالنجام: هو المنجم، وهو من ينظر في النجوم يحسب مواقيتها وسيرها، ويستطلع من ذلك أحوال الكون[11].

- واللجام بالتشديد: هو صانع اللجام وبائعه[12].

11 - المعجم الوسيط ج 2 / 730.
12 - نفسه ج 2 / 549.

- واللحام : «بائع اللحم ومن صناعته لأم المعادن.
اللحام : المادة يلحم بها.
اللحامة : حرفة اللحام»[13] .

ويبدو أن هذه التسميات قد تكون لها علاقة وطيدة بالحرف والمهن التي يحتمل أن يكون آل بطال قد امتهنوها فصاروا يعرفون بها بين أهلهم وقومهم.

---

13 ـ نفسه ج 2 / 555 .

العنصر الثاني: شيوخه و تلامذته.

اولا: شيوخه.

تتلمذ ابن بطال على أيدي علماء أثبات ساهموا في تكوينه وتوجيهه، وعنهم أخذ العلم والأدب، وفي مجالسهم تفقه، فكان لهذه الصحبة الأثر الأبرز في حياته العلمية.

قال القاضي عياض: «أخذ عن أبي الطلمنكي[14] (ت 429 هـ) وابن عفيف[15] (ت 477 هـ) و ابن الفرضي[16] (ت 403 هـ) وأبي القاسم الوهراني[17] (ت 411 هـ) وابن عبد الوارث[18] (ت 395 هـ) وأبي بكر الرازي[19] (ت 376 هـ)»[20].

---

14 ـ أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ج 17 /566 - 568 و الديباج المذهب ج 1 /39 ـ 40 وشذرات الذهب ج 3 /243 ـ 244 وغيرها .

15 ـ أنظر ترجمته في ترتيب المدارك ج 8/ 8 ـ 9 و شذرات الذهب ج 3 /354 و غيرهما.

16 ـ أنظر ترجمته في الصلة ج 1 /251 وسير أعلام النبلاء ج 17 /177 ـ 179 وغيرهما.

17 ـ أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ج 17 /333-332 وغيره.

18 ـ أنظر ترجمته في ترتيب المدارك ج7 / 30 والصلة ج2 /87 ـ 88 وشذرات الذهب ج 3 /-145 146 وغيرها .

19 ـ أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ج 16 /340 وشذرات الذهب ج 3 /87 وغيرهما .

20 ـ ترتيب المدارك ج 8/ 160.

وقال ابن بشكوال: «روى عن ابن أبي صفرة[21] (ت 436 هـ) والقنازعي[22] (ت 413 هـ) والقاضي يونس بن عبد الله[23] (ت 429 هـ) وغيرهم»[24].

ثانيا: تلامذته.

جريا على عادة العلماء، فقد تصدى ابن بطال للتدريس والإقراء حيث جلس في مجلسه عدد من الطلبة الذين قصدوا محاضراته ودروسه من كل فج عميق، غرضهم في ذلك الكرع من غزير علمه والنهل من معينه الفياض.

قال ابن بشكوال: «حدث عنه جماعة من العلماء»[25] .

وفي ترتيب المدارك للقاضي عياض تحديد لبعض أسماء هؤلاء. قال اليحصبي: «روى عنه أبو داود المقرئ[26] (ت 496 هـ) وعبد الرحمن بن بشرى[27] من مدينة سالم»[28] .

---

21 ـ أنظر ترجمته في ترتيب المدارك ج8/ 35 والصلة ج2/ 235 وشذرات الذهب ج 3 /354 وغيرها.

22 ـ أنظر ترجمته في ترتيب المدارك ج 7 /293 والصلة ج 1/52 وسير أعلام النبلاء ج 17 / 342 وشذرات الذهب ج3 /198 وغيرها .

23 ـ أنظر ترجمته في ترتيب المدارك ج8/ 15 والصلة ج2/ 280 وسير أعلام النبلاء ج 17 /569 وغيرها.

24 ـ الصلة لابن بشكوال ج 2/ 414.

25 ـ الصلة لابن بشكوال ج 2 /414 .

26 ـ أنظر ترجمته في الصلة ج2/ 55 وشذرات الذهب ج 3 /403 - 404 وغيرهما .

27 ـ لم أقف على ترجمته.

28 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج 8 /160.

العنصر الثالث: مصنفات ابن بطال.

لقد أجمع كل المترجمين لابن بطال أن له كتابا شرح فيه صحيح البخاري، وهو المسمى شرح صحيح البخاري. وأشار عياض إلى أن له كتابا آخر سماه «الزهد والرقائق».

كما أضاف له ابن مخلوف كتاب «الاعتصام في الحديث» حيث قال: «ألف شرحه المعروف على البخاري والاعتصام في الحديث»، وهي نفس الإضافة الواردة عند حاجي خليفة وصاحب معجم المؤلفين.

ولست أدري من أين أفاد ابن مخلوف وحاجي خليفة ورضا كحالة بهذه المعلومة خصوصا وأن من سبقوهم إلى ترجمة ابن بطال كعياض وابن بشكوال والذهبي ... لم ينسبوا إليه هذا المصنف.

كما وهم الشيخ أحمد بن المقري التلمساني في ترجمته لابن بطال حينما نسب إليه كتاب الأحكام، إذ قال: «وله رحمه الله تعالى شرح البخاري وأكثر ابن حجر من النقل عنه

في فتح الباري، وله كتاب الأحكام وغير ذلك، وترجمته شهيرة»[29].
والحال أن صاحب كتاب الأحكام هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي[30] (ت 404 هـ) وليس صاحبنا أبا الحسن بن بطال.

ومثل هذه الأوهام ليست غريبة عن المقري، فقد قال عنه محمد بن أبي بكر الدلائي (967هـ- 1046 هـ): «إنه حافظ ضابط غير ثقة»[31].

ويبدو أن تركيزه على هذه المصنفات المرتبطة بالحديث النبوي من شرحه لصحيح البخاري، و كتاب الاعتصام في الحديث، وآخر في الزهد والرقائق، إنما كان لقصد كان يتوخاه، وهو تذكير الناس بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعية إلى الوحدة والإيثار والتعاون ودرء جشع الدنيا وأطماعها التي

---

29 - نفح الطيب للمقري 3 /450، 451.

30 - انظر ترجمته في ترتيب المدارك ج 8 / 29 - 30 والصلة 1 / 194 وغيرهما.

31 - «الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي» لمحمد حجي ص 115 - 116 . وقد وجه محمد حجي هذا الجرح بقوله: ولعل ذلك من جناية الأدب على المقري . فالأدباء معروفون منذ القديم بالتساهل في الرواية، والتزيد في النوادر والملح الأمر الذي يتنافى وطبيعة المحدثين ذوي التشدد في قبول السند، والدقة في نقل متن الحديث.

ألقت بظلالها على القوم حينئذ، خصوصا وأنه عاش في فترة عرفت فيه الأندلس فتنا وصراعات سياسية.

وهذه هي رسالة العالم في حياة الناس، والمتجسدة أساسا في جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ودرء كل فتنة من شأنها أن تفسد عليهم صفو أمنهم واستقرارهم. وهو الهاجس الذي سكن الحافظ ابن بطال فأنتج هذه المصنفات العلمية المذكورة.

العنصر الرابع: عقيدته[32].

إن الحافظ ابن بطال من علماء أهل السنة والجماعة، فهو محدث وفقيه مالكي، لذلك عمل في كتابه شرح صحيح البخاري على إثبات آرائه الفقهية والدفاع عنها وفق تصور عام يستقي خصوصياته من مذهبه العقدي.

قال عنه الصفدي: « كان ينتحل الكلام على طريقة الأشعري»[33].

وعليه، فقد سعى في ثنايا كتابه إلى الرد على الفرق الكلامية، بحيث إنه لم يترك فرصة سانحة إلا وقام فيها بنقد هذه الفرق من معتزلة وخوارج وإباضية ....

ومن الغريب أن نجد محققي[34] الكتاب ينتقدان ابن بطال وعلماء أعلاما في عقيدتهم. فقد قالا عن الأول: «وقد أكثر ابن

---

32 ـ انظر أطروحة « الحياة العلمية في قرطبة في القرن الخامس الهجري الإمام ابن بطال وآراؤه الاعتقادية نموذجا دراسة تحليلية» للباحث فواز بن عبد العزيز السلمي جامعة محمد الخامس الرباط كلية الآداب والعلوم الإنسانية موسم 2004 ـ 2005م.

33 ـ الوافي بالوفيات للصفدي ج 21 /56.

34 ـ المقصود أبو أنس إبراهيم بن سعيد الصبيحي الذي راجع الجزء الثاني والجزء الثالث والجزء الرابع والجزء الخامس وأبو تميم ياسر بن إبراهيم الذي راجع الجزء الأول والجزء السادس والجزء السابع والجزء الثامن والجزء التاسع والجزء العاشر من شرح صحيح البخاري لابن بطال.

بطال - رحمه الله - في كتابه من تأويل أحاديث الصفات، واعتمد في جل ذلك على ابن فورك في كتابه مشكل الحديث، وابن فورك متجهم نحا منحى ابن الثلجي في تأويل أحاديث الصفات. وقد تتبعنا ما قابلنا في ذلك فألمحنا إلى فساده مع بيان الحق في ذلك بأخصر عبارة وأقصر إشارة...»[35].

وقالا أيضا: «ونحن إذ نذكر هذا نعذر من تلبس من علمائنا ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه وبذل وسعه كابن بطال والنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهم من أهل العلم...»[36].

ويعكر عليهما أن يتهما ابن بطال وغيره من جهابذة العلم بالتلبس بالبدعة دون أي بينة سوى تأويلهم للصفات واعتمادهم على بعض الكتب التي لا تروق توجههما كما فعل ابن بطال في إفادته من مشكل الحديث لابن فورك[37].

35 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /15.

36 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 /15.

37 ـ اعتمد عليه كذلك ابن حجر في الفتح. أنظر ج 13 / 394 و ج 13 / 398.

إن الاستفادة من شخص معين ليس معناها موافقاته لكل آرائه وتوجهاته، وإنما معناها الأخذ مما صح من كلامه ودرء ما بدا منه سقيما.

ولنا في حديث أبي هريرة درس بليغ في الاستفادة من الغير، ولو كان هذا الغير شيطانا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فقال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « صدقك وهو كذوب ذاك شيطان»[38] .

إن مثل هذه الآراء التي تكون جاهزة لا ينبغي الالتفات إليها لكونها لا تستند إلى الدقة أو الموضوعية التي يتطلبها البحث العلمي كما أنها تتعارض مع المبدأ الإسلامي العام الذي يجسده

---

38 ـ صحيح البخاري باب صفة إبليس وجنوده.

قوله صلى الله عليه و سلم: « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[39] .

العنصر الخامس: ثناء الناس عليه.

رغم أن المصادر العلمية المترجمة لابن بطال قد ضنت عليه في ذكر مختلف جوانب شخصيته، إلا أنها أوردت شهادات دقيقة ومتضمنة لألقاب علمية قليل هم من يظفرون بها.

وهذه نماذج من تلك الشهادات:

قال عياض: «وكان ابن بطال رحمه الله نبيلا جليلا متصرفا»[40].

وقال ابن بشكوال: «وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم مليح الخط حسن الضبط، عني بالحديث العناية التامة وأتقن ما قيد فيه شرح صحيح البخاري وفي عدة أسفار»[41].

39- رواه الترمذي في باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة وابن ماجه في باب الحكمة واللفظ للترمذي.

40- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج 8/ 160 .

41- الصلة لابن بشكوال ج 2/ 414 .

وقال عنه ابن مخلوف: «الإمام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه»[42] .

ومما يلاحظ ضمن هذه الشهادات تحلية ابن مخلوف لابن بطال بلقب الحافظ، وهو شذوذ منه رحمه الله، إذ أن كتب الحفاظ المعتبرة لم تشر إلى ابن بطال.

إلا أن الذي يشفع لابن مخلوف فيما ذهب إليه هو أن عبارات ترجمة ابن بشكوال لابن بطال يشم منها لقب الحافظ، فهو يقول: «عني بالحديث العناية التامة».

ثم إن عدم إدراج اسمه ضمن كتب الحفاظ[43] ليس دليلا قاطعا على عدم بلوغه لهذه الدرجة العلمية سيما وأن هؤلاء المترجمين للحفاظ لم يبلغوا من الاستقراء والبحث ما لا يحتمل الاستدراك. فالكمال لله وحده.

---

42 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن مخلوف ج1 / 115 .

43 ـ ذكره الإمام أبو عبد الله شمس الدين الذهبي في تذكرة الحفاظ ج 3/ 1127 لكن ليس على شرطه.

العنصر السادس: وفاته.

اختلف في تاريخ وفاته.

قال عياض: «توفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة بفلنسية»[44].
وقال ابن بشكوال: «وقرأت بخط أبي الحسن المقرئ أنه توفي ليلة الأربعاء وصلي عليه عند صلاة الظهر آخر يوم من صفر سنة 449هـ»[45].

وقد مال أكثر المؤرخين إلى ما قاله ابن بشكوال. وهو الصواب - إن شاء الله تعالى - للاعتبارات الآتية:

- إن القاضي عياضا ليس متخصصا في ترجمة الأندلسيين، فكتابه ترتيب المدارك موجه للترجمة لأعلام المالكية كما يدل على ذلك اسم الكتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»، بينما خصص ابن بشكوال

44 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج 8 /160 .
45 - الصلة لابن بشكوال ج 2 /414 .

مصنفه الصلة لاستئناف كتاب ابن الفرضي في الترجمة لرجال الأندلس خاصة.

وعليه، فبالرغم من السبق التاريخي لعياض، فإن ابن بشكوال في هذا الباب أضبط.

- يمكن للقاضي عياض أن يهم في قراءة كلمة تسعة من عام تسعة وأربعين وأربعمائة، إذ يمكن أن يقع في رسم رقم تسعة محو نقطتي التاء والسنتين الأوليتين من حرف السين هكذا (ــــ معة) فيخاله أربعة.

- إن ابن بشكوال أفادنا بمعلومات إضافية تزكي ضبطه وذلك بذكره لليلة وفاة ابن بطال وشهرها ولصلاة جنازته.

المبحث الثاني: التعريف بكتاب شرح صحيح البخاري لابن بطال.

يعد شرح صحيح البخاري لابن بطال من أهم الشروح التي خدمت الجامع الصحيح وخاصة فيما يتعلق بالجانب الفقهي ، فهو أقدم شرح مطبوع يصل إلينا لحد الآن إذا استثنينا كتاب معالم السنن للخطابي الذي يغلب عليه شرح الغريب. هذا بالإضافة إلى كونه يشكل نموذجا فريدا للاهتمام الذي حظي به الجامع الصحيح من قبل علماء الغرب الإسلامي.

وبهذه المزايا وغيرها أثنى العلماء على هذا المصنف:

قال عياض: «وألف شرحا لكتاب البخاري كبيرا يتنافس فيه كثير الفائدة»[46] .

وقال عنه ابن بشكوال: «وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار. رواه الناس عنه... وحدث عنه جماعة من العلماء»[47].

46- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج 8 /160 .

47- الصلة لابن بشكوال ج 2 /414 .

كما حظي الكتاب باهتمام بالغ من قبل علماء المغرب والشرق على السواء كما سنوضح ذلك في تمهيد الفصل الثاني من البحث.

وقد صنف الحافظ ابن بطال مصنفه شرح صحيح البخاري في عدة أسفار، وتوجد نسخ هذا الكتاب بعدة خزائن [48]، وهي:

- نسخة خطية في الخزانة العامة بالرباط برقم 239ق، تشتمل على الجزء الأول من الكتاب، وهي من ممتلكات أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي وأولها ناقص من كتاب بدء الوحي.

- نسخة خطية في خزانة القرويين بفاس برقم 423، تشتمل على القسم الثاني، و كتبت 776 هـ.

- نسخة خطية في مكتبة الجامع الأعظم بمكناس برقم 330، وهي تشتمل على الجزء الأول وفي أولها ما يدل على أنها من أوقاف السلطان محمد بن عبد الله على الخزانة.

48 ـ نقلا عن مقال للأستاذ محمد رستم بعنوان شارح مالكي لصحيح الإمام البخاري من الغرب الإسلامي ص 111 ـ 112 مجلة الإحياء العدد العاشر ربيع الأول 1418 هـ.

- نسخة خطية في خزانة ابن يوسف بمراكش برقم 485، وهي متلاشية جدا.

- نسخة خطية بالمدينة المنورة في المكتبة المحمودية برقم 38، وهي تشتمل على القسم الأول.

- نسخ متعددة في الأزهر: تشتمل على الأجزاء 1 و3 و4.

- نسخة خطية في استنبول بتركيا، وهي تشتمل على الجزء الأول وهو ناقص الأول.

- نسخة خطية بمكتبة تشستربتي بدبلن برقم 4785 تشتمل على الجزء الخامس وهو مبتور الآخر.

- نسخة خطية في بريل بهولندا (هوتسما ج 2/ 690 وجاريت برقم 1349).

ومن الأبحاث والدراسات التي تناولت مصنف ابن بطال نذكر:

- شرح صحيح البخاري جمع وتحقيق أبي تميم ياسربن إبراهيم وطبع بمكتبة الرشد بالرياض في عشرة أجزاء الطبعة الأولى 2000 م والطبعة الثانية 2002م.

- شرح صحيح البخاري لابن بطال القرطبي من أول كتاب البيوع إلى نهاية كتاب الشفعة : دراسة وتحقيق[49] للباحثة بشرى المعطاوي .

- شرح ابن بطال على صحيح البخاري حققه وخرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة الطبعة الأولى 1424هـ/2003م دار الكتب العلمية بيروت.

- مقال للأستاذ رستم بعنوان: شارح مالكي لصحيح البخاري من الغرب الإسلامي[50].

- منهج ابن بطال في فقه الحديث [51] للباحث محمد صديقي.

---

49 - نالت به الباحثة دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط موسم 1999 - 2000م.

50 - مجلة الإحياء ربيع الأول 1418 هـ عدد 10 ص 123 .

51 - نال به الباحث دبلوم الدراسات العليا المعمقة من دار الحديث الحسنية سنة 2002 .

- ابن بطال واختياراته الفقهية من خلال مصنفه شرح صحيح البخاري[57] للباحث المصطفى زمهنى.

- شرح صحيح البخاري لابن بطال: دراسة في منهجه وتحقيقه من أول كتاب الفرائض إلى نهاية كتاب الأطعمة[58] للباحث حبيب الله بن محمد المصطفى بن حبيب الرحمن الشنقيطي.

- الحياة العلمية في قرطبة في القرن الخامس الهجري الإمام ابن بطال وآراؤه الاعتقادية نموذجا دراسة تحليلية للباحث فواز بن عبد العزيز السلمي[59].

- أقوال ابن بطال في التفسير من خلال كتابه شرح صحيح البخاري جمعا ودراسة [60] للباحث سيف بن منصر بن علي الحارثي.

- العمل النقدي في فتح الباري: نقد كلام ابن بطال نموذجا. «جمع، وتصنيف، ودراسة»[61] للباحث المصطفى زمهنى.

---

57 - نال به الباحث دبلوم الدراسات العليا المعمقة من دار الحديث الحسنية سنة 2002 .

58 - نال به الباحث درجة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية موسم 2003 - 2004 .

59 - نال به الباحث درجة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية موسم 2004 - 2005 .

60 - نال به الباحث درجة الماجستير من كلية اصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض الموسم الدراسي 1426 هـ 2005م.

61 - نال به الباحث درجة الدكتوراه من كلية الشريعة بفاس موسم 2010 - 2011 .

المطلب الأول: منهج ابن بطال في كتابه.

لم يصدر ابن بطال كتابه بخطبة يبين فيها منهجه، إلا أن المحققين ذكرا في مقدمتهما بعض ملامح منهجه العام الذي اتبعه في مصنفه، و هذه بعضها [62]:

- لم يتعرض المصنف لشرح كل كتب صحيح البخاري فضلا عن أبوابه، بل كان جل اهتماماته بما له متعلق بالأحكام الفقهية، فهناك كتب لم يذكرها في شرحه كبدء الخلق والتفسير والفضائل ومناقب الصحابة والمغازي.

- يذكر المصنف اسم الباب ثم يسرد الأحاديث التي وردت فيه ويقوم بحذف إسناد في أول الحديث ويبدأ بذكر الصحابي راوي الحديث، وأحيانا يذكر من روى عن الصحابي فيقول فيه ابن عمر مثلا قال... ثم يذكر متن الحديث.

-يختصر المصنف متون الأحاديث عندما يسردها، فأحيانا يكون اختصاره من أوله، وأحيانا أخرى في أثنائها، و كثيرا ما يختصر آخرها ويقول... الحديث، وأحيانا يذكر الحديث بالمعنى.

---

62. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 / 16 ـ 17.

- يدمج المصنف بعض الأبواب مع بعض فيذكر الحديث ثم يقول: وترجم له بباب كذا، ثم لا يذكر الباب.

- يترجم المصنف أحيانا لبعض الأبواب ويعرض عن ذكر أحاديثها وشرحها، ثم يقول: ليس فيه فقه، أو لا فقه في هذا الباب.

-لم يتعرض المصنف لمناسبة الأحاديث لتراجم الكتاب إلا في النادر رغم أن هذه من أعظم فوائد الكتاب.

- يذكر المصنف شرح بعض الألفاظ الغريبة في الأحاديث دون استقصاء ويعتمد في ذلك غالبا على أبي عبيد والخطابي والحربي وابن قتيبة وصاحب الأفعال وصاحب العين.

- ينقل المصنف المذاهب الفقهية المتعلقة بأحاديث الباب ويهتم بنقل مذهب مالك مع التوجيه والترجيح وذكر الأدلة ومناقشتها، ويتمسك في الغالب بما يدل عليه الحديث وإن خالف مذهبه، ويرد على من خالف ذلك.

- أكثر ابن بطال في شرحه من استنباط الفوائد المتنوعة من الألفاظ والعبارات الواردة في الأحاديث.

- لم يترك المصنف مدخلا ولا موضعا يحتاج إلى تذكير أو وعظ إلا وأدلى فيه بدلوه.

أما فيما يتعلق بمصادره، فقد أفاد ابن بطال في بناء صرح كتابه شرح صحيح البخاري من موارد متعددة ومتنوعة شملت مختلف فنون العلوم الشرعية واللغوية.

وإجمالا يمكن القول إن موارد الحافظ في مصنفه على ثلاثة أنواع:

أ - مصادر غير معينة: وهي تلك التي يشير فيها إلى بعض المعلومات من غير توثيقها ولا ذكر أصحابها، فهي غالبا ما تكون شفوية كقوله في حديث «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب عند كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[63]:

63. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 3 / 134.

(ورأيت لبعض من فسر هذا الحديث قال: العقد الثلاث هي: الأكل والشرب والنوم، ألا ترى أن من أكثر الأكل والشرب أنه يكثر نومه لذلك، والله أعلم بصحة هذا التأويل وبما أراد عليه السلام من ذلك)[64] .

وقوله أيضا: «وقال بعض الناس: المراد بهذا الحديث **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)** كف الأذى والكره عن الناس»[65] .

ب - مصادر غير تامة التعيين: وهي التي يذكر فيها الكتاب فقط دون ذكر مؤلفه، أو يذكر فيها المؤلف دون الإشارة إلى المؤلف.

ومن أمثلة ذلك قوله: «قال المهلب: يريد المسلم المستكمل لأمور الإسلام خلاف قول المرجئة»[66] .

64. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 3 / 135.

65. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 / 65.

66. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 / 62.

وقوله أيضا: « وفي كتاب الأفعال حسم العرق حسما: كواه بالنار لينقطع دمه»[67] .

ج - **مصادر تامة التعيين:** وهي التي يذكر فيه المصنف والمصنف معا.

ومثاله قوله: « قال ابن القاسم في المدونة: إذا رمى آخر أيام منى فليخرج إلى مكة ولا يصلي الظهر بمنى، واستحب النزول بأبطح مكة وهو حيث المقبرة يصلي فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم يدخل مكة أول الليل فذلك فعل النبي عليه السلام»[68] .

67 ـ المصدر نفسه ج 8 / 424.

68 ـ المصدر نفسه ج 4 / 428.

وبالرغم من تعدد موارد ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري، فإنه لم يكتف بمجرد النقل والاجترار، بل إنه ضمن كتابه جملة من الاختيارات والتوجهات، والتي اتسمت بخصائص نذكرمنها:

- استقراء أقوال العلماء في المسألة.
- استخدام الصناعة الحديثية.
- موافقة أقوال مالك.
- نقد الفرق الكلامية.
- التزام الموضوعية في النقد.

العنصر الأول: استقراء أقوال العلماء في المسألة.

يعمل الحافظ ابن بطال في سياق اختياراته الفقهية على استقراء أقوال العلماء في المسألة المراد دراستها، حيث يستعرض آراء الصحابة والتابعين والمحدثين والفقهاء.

والملاحظ أنه لا يقتصر على أعلام مذهبه المالكي فحسب، بل يسعى إلى إيراد ما علمه من أقوال المذاهب الأخرى كالخنفية، والشافعية، والحنبلية، وغيرها.

ويمكن التمثيل لما ذكر من خلال المثالين الآتيين:

_ المثال الأول:

قال ابن بطال في باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان: « قال النخعي ومحكول والأوزاعي في رواية: يعيد الوضوء، وهو قول أجمد وإسحاق.

وقال الكوفيون والمزني وأبو ثور: يغسل قدميه، وعن الأوزاعي مثله.

واختلف قول الشافعي مثل قول الأوزاعي، فمرة قال: يتوضأ ومرة قال: يغسل قدميه.

وقال مالك والليث: يغسل رجليه مكانه فان تطاول أعاد الوضوء.
وقال الحسن البصري وابن ليلى وقتادة ورواية عن النخعي: إذا نزع خفيه بعد المسح ليس عليه شيء»[69].

وبعد ذكر هذه الأقوال الفقهية يورد اختياره، إذ قال: « وحجة هذا القول الإجماع على أنه من مسح برأسه في الوضوء ثم حلقه أنه لا يستأنف مسحه فكذلك رجليه»[70].

- المثال الثاني:

قال ابن بطال في باب البول قائما وقاعدا: «... فروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك وأبي هريرة وسعد بن عبادة أنه بالوا قياما.

---

69 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /311.
70 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /311.

وروي مثله عن ابن المسيب وابن سيرين وعروة بن الزبير.

كرهت طائفة البول قائما، ذكر ابن أبي شيبة في مصنفه إنكار عائشة أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم بال قائما. وفيه قول ثالث: أن البول إذا كان في مكان لا يتطاير عليه منه شيء فلا بأس به، وإن كان يتطاير عليه فهو مكروه»[71].

ثم يقول في اختياره: «هذا قول مالك، وهو دليل الحديث، لأنه عليه السلام أتى سباطة قوم فبال قائما، والسباطة: المزبلة، والبول فيها لا يكاد يتطاير منه كبير شيء فلذلك بال قائما عليه السلام.

ومن كره البول قائما فإنما كرهه خشية ما يتطاير إليه من بوله، ومن أجازه خوف ما يحدثه البائل جالسا في الأغلب من الصوت الخارج عنه إذا لم يمكنه التباعد عمن يسمعه.

وقد جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: البول قائما أحصن للدبر»[72].

---

71. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /335.

72. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /335.

العنصر الثاني: استخدام الصناعة الحديثية.

إن تحلية ابن بطال بألقاب حديثية كالحافظ والمحدث[73]... لتأكيد على دراية الرجل بعلوم الحديث، مما جعل ثلة من اختياراته الفقهية تستند إلى ثقافته الحديثية؛ فهو يناقش الأسانيد والمتون، ويصححها أو يضعفها، ويرجح حديثا على آخر..

وتبرز هذه الثقافة الحديثية من خلال جملة من اختياراته كما في هذين المثالين:

ـ المثال الأول:

قال ابن بطال في باب إذا ولغ الكلب في إناء: « وأولى ما قيل في هذا الباب حديث أبي هريرة في الغسل سبعا[74]، فهو أصح من حديث ابن مغفل ومن كل ما روي في ذلك، فقد اضطرب حديث ابن مغفل[75]، فروى مرة عن شعبة عن أبي التياح، عن مطرف عن ابن مغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب ورخص في كلب الزرع والصيد، وروى مرة على خلاف هذا.

---

73 ـ شجرة النور الزكية ج1 /115.

74 ـ يقصد حديث: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا».

75 ـ يقصد حديث: «أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، ثم قال: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات وعفروه الثامنة بالتراب».

وروى أبو شهاب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن ابن مغفل قال: لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم، ومثل هذا الاضطراب يوجب سقوط الحديث»[76].

_ المثال الثاني:

قال الحافظ في باب إعفاء اللحى: «... روى مروان بن معاوية عن سعيد بن أبي راشد المكي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: كان رسول الله يأخذ اللحية فما طلع على الكف جزه، وهذا الحديث وإن كان في إسناده نظر فهو جميل من الأمر وحسن من الفعال»[77].

---

76. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /270.
77. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج9 /147.

العنصر الثالث: موافقة أقوال مالك.

يعتبر الحافظ ابن بطال من أعلام المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، لذلك كانت جل اختياراته الفقهية موافقة لأقوال الإمام مالك رحمه الله تعالى.

ولعل التزامه بالمذهب المالكي جعله يتحدث باسم هذا المذهب في بعض اختياراته كقوله في باب الالتفات في الصلاة: « والحجة لنا أن نبي الله لم يؤمر منه بالإعادة حين أخبر أنه اختلاس من الشيطان، ولو وجبت فيه الإعادة لأمرنا بها، لأنه بعث معلما، كما أمر الأعرابي بالإعادة مرة بعد الأخرى »[78].

ويمكن إبراز موافقة اختيارات ابن بطال الفقهية لآراء مالك من خلال المثالين الآتيين:

- المثال الأول:

قال ابن بطال في باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع: «وقول مالك أعدل الأقوال في ذلك وأولاها بالصواب»[79] .

---

78 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج2/ 366.

79 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج6/ 271.

ـ المثال الثاني:

قال ابن بطال في باب الركعة الأولى في الكسوف أطول: « وقوله في حديث عائشة: الأولى الأولى أطول، حجة لقول مالك»[80].

وإذا حدث أن خالفه في اختيار ما – وهذا نادر – فإنه يلتمس أعذارا للإمام مالك في عدم القول بمثل اختياره، ويبدو ذلك واضحا من خلال هذا المثال:

قال الحافظ في باب تقليد الغنم: « اختلف العلماء في تقليد الغنم فمن رأى تقليدها أخذا بهذا الحديث[81] عائشة أم المومنين، وهو قول عطاء، وبه قال الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور. وقال مالك وأبو حنيفة: لا يقلد الغنم، وأظنه لم يبلغهم الحديث»[82] .

80 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 /50.

81 ـ يقصد حديث عائشة رضي الله عنها قالت: « كنت أفتل القلائد للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيقلد الغنم، ويقيم في أهله حلالا».

82 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج4 /384.

العنصر الرابع: نقد الفرق الكلامية.

لقد كانت همة الإمام ابن بطال منصرفة نحو تنزيه الله عز وجل عن كل نقص من تجسيم أو تجسيد أو غيرهما ووصفه بكل كمال مطلق كما يليق بوجهه الكريم وسلطانه العزيز مصداقا لقوله عزوجل: « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» [83].

لذا عمل في ثنايا كتابه على الرد على الفرق الكلامية التي حادت عن المنهج الوسطي ببيان تهافت أقوالها وغلو اختياراتها.

وكمثال على ذلك قوله في باب الوضوء بالمد: « والمستحب لمن لم يقدر على الإسباغ بالقليل أن يقلل ولا يزيد على ذلك لأن السرف ممنوع في الشريعة ...

وهذا كله رد على الإباضية ومن رأى أن قليل الماء لا يجزئ، والسنة حجة على من خالفها» [84] .

ويقول أيضا في باب قول الله تعالى «إنما الخمر والميسر»[85] : «وأما قوله: لا يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن، فهذا من

83. سورة الشورى الآية 9.

84. شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 / 303 .

85. سورة المائدة جزء من الآية 92.

أشد ما جاء في شارب الخمر، وقد تعلق بظاهر هذا الحديث الخوارج فكفروا المؤمنين بالذنوب.

والذي عليه أهل السنة وعلماء الأمة أن قوله: «مؤمن» يعني مستكمل الإيمان لأن شارب الخمر والزاني أنقص حالا ممن لم يأت شيئا من ذلك لا محالة، لا أنه كافر بذلك»[86] .

العنصر الخامس: التزام الموضوعية في النقد.

سلف أن جل اختيارات ابن بطال الفقهية مالكية، لذلك من الطبيعي أن ينتقد مخالفيه ويرد على أقوالهم مستندا في ذلك إلى الحجة والبرهان والدليل العلمي رغبة منه في إبراز رجاحة رأيه على آراء غيره.

وأهم ما يمكن تسجيله في مناقشته لغيره التزامه بالنقد الموضوعي الذي يبتغي الصواب ويتحراه؛ فهو يتعرض لأقوال العلماء في مسألة معينة ويناقشها بأسلوب علمي يتسم بالجدل بالتي هي أحسن وعفة لسان في رد أقوال مخالفيه.

---

86 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 6/ 37.

وهذه الأمثلة توضح ذلك:

ـ قال ابن بطال في باب القراءة في الظهر: « ... ولا حجة لتفريق الكوفيين بين حكم الإمام والمنفرد في ذلك، إذ لا حجة لهم في كتاب ولا سنة ولا نظر»[87].

ـ وقال أيضا في باب إذا لم ينو الإمام أن يؤم ثم جاء قوم فأمهم: «... وأما قول أبي حنيفة، فلو قلبه عليه قالب فقال: إن نوى أن يكون إماما جاز للنساء أن يصلين خلفه ولم يجز للرجال، لم يكن له فرق ولم تكن الحجة لهم إلا كالحجة عليهم، وأيضا فإن النساء كن يصلين خلف النبي عليه السلام ولم ينقل على أحد أنه عينهن بالنية، ولا حصل منه تعليم ذلك»[88].

بل إن الحافظ ابن بطال في مناقشته لمن أغرب في القول ـ في نظره ـ لا يتجرأ أن يسمهم بأوصاف قاسية، ولكنه يسعى بالأدلة العلمية لبيان وهن آرائهم وتهافت اختياراتهم، فهو يقول

87 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج2 /378.

88 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج2 /331.

مثلا في داود بن علي في باب إذا لم يوجد صاحب اللقطة بعد سنة فهي لمن وجدها: « وخرق الإجماع رجل نسب إلى العلم يعرف بداود بن علي فقال: إذا جاء صاحبها بعد سنة لم يضمنها ملتقطها.

ولا سلف له في ذلك إلا اتباع الهوى والجرأة على مخالفة الجماعة التي لا يجوز عليها تحريف التأويل ولا الخطأ فيه، أعاذنا الله من اتباع الهوى والابتداع في دينه مما لم يأذن فيه عزوجل»[89] .

---

89 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج6 /552.

المطلب الثاني: الأسس التي اعتمدها ابن بطال في اختياراته الفقهية.

لقد استند الحافظ ابن بطال في اختياراته العلمية إلى جملة من الأسس التي بها كان يرجح قولا على قول وينتصر لرأي على رأي. ويتبدى لقارئ كتابه شرح صحيح البخاري أن الأسس التي اعتمدها الحافظ ابن بطال في اختياراته الفقهية هي:

العنصر الأول: النقل الصحيح أساسا في الاختيار.
العنصر الثاني: عمل أهل المدينة أساسا في الاختيار.
العنصر الثالث: علم أصول الفقه أساسا في الاختيار.
العنصر الرابع: الاجتهاد في فهم النص أساسا في الاختيار.
العنصر الخامس: القواعد الأصولية أساسا في الاختيار.
العنصر السادس: اللغة أساسا في الاختيار.
العنصر السابع: النظر في الكون أساسا في الاختيار.

العنصر الأول: النقل الصحيح أساسا في الاختيار.

اعتمد الحافظ ابن بطال النقل الصحيح أساسا من الأسس المعتمدة في اختياراته الفقهية.

والمقصود بالنقل الصحيح القرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال الصحابة أو التابعين، حيث يستند إليها لاختيار قول من الأقوال الفقهية التي قيلت في مسألة معينة.

ويبدو إعماله لهذا الأساس واضحا من خلال الأمثلة الآتية:

- قال ابن بطال في باب صوم أيام التشريق: « وفي قوله تعالى: «فصيام ثلاثة أيام في الحج» أبين البيان أنه لا يجزئه صيامها في غير الحج، وهذا يرد أيضا ما روي عن علي والحسن»[89] .

- وقال أيضا في باب من لم ير التشهد الأول واجبا: « والدليل أنه غير واجب حديث ابن بحينة أن النبي عليه السلام صلى ركعتين فقام إلى الثالثة ولم يجلس، فلما تم أربعا سجد للسهو

---

89 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 4 /139.

قبل السلام، فلو كان التشهد واجبا لرجع إليه حين سبح به ولم ينب منابه سجودا لسهو، لأنه لا ينوب عن الفرض»[90] .

ـ وقال كذلك في باب القعدة بين الخطبتين يوم الجمعة: «وحجة من قال إنها سنة حديث ابن عمر أن النبي عليه السلام كان يجلس في خطبته، ولم يقل إنه لا تجزئه الخطبة إلا بالجلوس فيها لأن عليه فرض بيان»[91] .

العنصر الثاني: عمل أهل المدينة أساسا في الاختيار.

يعتبر عمل أهل المدينة دليلا أساسيا، إذ به تعرف الأصول من الفروع، ولذلك عده ابن تيمية أصح المذاهب حيث قال: «ثم من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد»[92] .

وقد استند الحافظ ابن بطال في اختياراته الفقهية إلى عمل أهل المدينة في العديد من القضايا التي كان يثيرها في كتابه شرح صحيح البخاري.

---

90 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 /62.

91 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 2 /512.

92 ـ فتاوى ابن تيمية ج 20 /328.

ولاغرو في ذلك، فهو مالكي المذهب، لذا أعمل كثيرا هذا الضابط باعتباره من أهم مقومات مذهب مالك رحمه الله تعالى.

وهذه النصوص تمثل نماذج واضحة لاعتماد ابن بطال عمل أهل المدينة في الاختيار:

- قال في باب وقت المغرب: «وفي هذا ما يكفي مع العمل بالمدينة على تعجيلها، ولو كان وقتها واسعا لعمل المسلمون فيها كسائر الصلوات من أذان المؤذنين واحدا بعد واحد، والركوع بين الأذان والإقامة لها، فتركهم ذلك دليل على المبادرة بها»[93] .

- وقال أيضا في باب الأذان مثنى مثنى: « ... فكان عملهم أقوى من كل شيء يرد من طريق خبر الواحد، لأن الأذان مما يتكرر كل يوم خمس مرات، ولا يؤخذ قياسا، علمنا أنهم عملوا ذلك من جهر الرسول صلى الله عليه وسلم، فوجب الرجوع إلى ما هم عليه كما رجع من خالفهم إلى صاعهم ومدهم»[94].

93 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 2 / 200.

94 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 2 / 232.

العنصر الثالث: علم أصول الفقه أساسا في الاختيار.

اعتمد الحافظ ابن بطال علم أصول الفقه أساسا في اختياراته الفقهية من خلال استناده لبعض الأدلة في الاختيار ، ومنها الإجماع والقياس.

والإجماع عبارة عن اتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد في عصر من الاعصار على حكم واقعة من الوقائع[95] .

ومثاله قول الحافظ: « ونقول: إن الإجماع حاصل على جواز استعمال الماء المستعمل وذلك أن الماء إذا لاقى أول جزء من أجزاء العضو فقد صار مستعملا ، ثم يمره على كل جزء بعده فيجزئه ، ولو لم يجز الوضوء بماء مستعمل ولم يجز إمراره على باقي العضو، ولوجب عليه أن يأخذ لكل جزء من العضو ماء جديدا»[96] .

---

95. الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج1 /281 - 282 .
96 . شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 /290.

أما القياس في اصطلاح الأصوليين فهو عبارة عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل[97] .

وكمثال على استخدامه لدليل القياس المثالان الآتيان:

قال في باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان: « وحجة هذا القول[98] الإجماع على أنه من مسح برأسه في الوضوء ثم حلقه أنه لا يستأنف مسحه فكذلك رجليه»[99] .

وقال كذلك في باب تحد المتوفى عنها أربعة أشهروعشرا: « ولما أجمعوا أن على الصغيرة عدة الوفاة فكذلك الإحداد»[100] .

---

97 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج 3 / 273.

98 ـ يقصد قول الحسن البصري وابن أبي ليلى وقتادة ورواية عن النخعي: إذا نزع خفيه بعد المسح صلى، وليس عليه شيء.

99 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 /311.

100 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج7 /508.

العنصر الرابع: الاجتهاد في فهم النص أساسا في الاختيار.

الاجتهاد هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، وهو يعني بذل الوسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجهد: الطاقة[101].

وقد عرفه الأصوليون بتعريفات عدة منها قولهم: « وأما في اصطلاح الأصوليين فمخصوص باستفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه»[102].

والمتأمل في كتاب شرح صحيح البخاري يلحظ مدى بروز الملكة الاجتهادية للحافظ ابن بطال، فهو يستفرغ جهده وإمكاناته العلمية من أجل استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية.

ويمكن إبراز ملامح هذا الاجتهاد من الأمثلة الآتية:

101 ـ لسان العرب ج 3 /135 مادة جهد.

102 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج 4 /218 .

ـ قال الحافظ في باب من لم يتوضأ من لحم الشاة والسويق: «وهذا لو صح (أي إيجاب الوضوء) لكان منسوخا بما ذ كرنا أن آخر الأمرين ترك الوضوء مما مست النار.

وقد يحتمل أن يكون الوضوء محمولا على الاستحباب والنظافة لشهوكة الإبل لا على الإيجاب، لأن تناول الأشياء النجسة مثل الميتة والدم ولحم الخنزير لا ينقض الوضوء فلأن لا توجبه الأشياء الطاهرة أولى»[103] .

ـ وقال كذلك في باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان: « وقال مالك في قوله عليه السلام: التمسوها في تاسعة تبقى هي ليلة إحدى وعشرين وسابعة تبقى ليلة ثلاث وعشرين، وخامسة تبقى ليلة خمس وعشرين.

وإنما يصح معناه وتوافق ليلة القدر وترا من الليالي على ما ذ كر من الحديث إذا كان الشهر ناقصا، فأما إن كان كاملا فإنها لا تكون إلا في شفع فتكون التاسعة الباقية هي ليلة ثنتين وعشرين والخامسة الباقية ليلة ست وعشرين، والسابعة الباقية ليلة أربع

103 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 316.

وعشرين على ما ذكر البخاري عن ابن عباس، فلا تصادف واحدة منهن وترا، وهذا يدل على انتقال ليلة القدر كل سنة في العشر الأواخر من وتر إلى شفع ومن شفع إلى وتر، لأن النبي عليه السلام لم يأمر أمته بالتماسها في شهر كامل دون ناقص. بل أطلق على طلبها في جميع شهور رمضان التي رتبها الله مرة على التمام، ومرة على النقصان، فثبت انتقالها في العشر الأواخر كلها على ما قاله أبو قلابة»[104] .

104 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 4 /156.

العنصر الخامس: القواعد الأصولية أساسا في الاختيار.

اعتمد الحافظ ابن بطال القواعد اللغوية الأصولية كأساس من الأسس المعتمدة في اختياراته الفقهية مثل العام والخاص والترجيح...

وتوضح الأمثلة الآتية مدى حضور النفس الأصولي عند الحافظ ابن بطال.

- المثال الأول: اعتماده العام.

والعام هو اللفظ الواحد الدال على مسميين فصاعدا مطلقا معا[105]. قال الحافظ في باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم: « والدليل لجواز التيمم وإن لم يخف التلف ما احتج به أبو موسى على ابن مسعود من قوله تعالى: « فلم تجدوا ماء »[106] ولم يفرق بين مرض التلف أو مرض يخاف زيادته، فهو عام في كل مرض إلا أن يقوم دليل»[107].

105 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج 2 / 287.

106 : جزء من الآية 7 من سورة المائدة.

107 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 /490.

ـ المثال الثاني: اعتماده الخاص.

والخاص هو كل ما ليس بعام، وهو غير مانع لدخول الألفاظ المهملة فيه، فإنها لعدم دلالتها، لا توصف بعموم ولا بخصوص[108].

قال الحافظ في باب كراء الأرض بالذهب والفضة: « وقد ثبت عن رافع في هذا الباب أن كراء الأرض بالذهب والفضة جائز، وذلك مضاف إلى رسول الله وهو خاص يقضي على العام الذي جاء فيه النهي عن كراء الأرض لغير استثناء ذهب ولا فضة، والزائد من الأخبار أولى أن يؤخذ به لئلا تتعارض الأخبار ويسقط شيء منها »[109].

ـ المثال الثالث: اعتماده الترجيح.

والترجيح عبارة عن اقتران أحد الصالحين للدلالة على المطلوب مع تعارضهما بما يوجب العمل به وإهمال الآخر[110].

108 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج 2 /288.
109 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج6 /488..
110 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج4 /320.

قال الحافظ في باب قوله تعالى: « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» : « وقد اختلف الصحابة في هذه المسألة فينبغي أن يقدم قول عائشة وابن عمر (قالا: القرء هو الطهر) لأن عائشة أعرف بحال الحيض لما تختص به من حال النساء وقربها من رسول الله، و كذلك ابن عمر لأن عرف الطلاق في الحيض وما أصابه فيه فهو أعلم به من غيره»[113] .

وقال أيضا في باب حكم المفقود في أهله وماله: « فكما وجب تأجيل العنين تقليدا لعمر وابن مسعود، فكذلك وجب تأجيل امرأة المفقود، لأن العدد الذين قالوا بالتأجيل أكثروهم أربعة من الخلفاء، وقد قال النبي: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي »[114] .

---

113 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج7 /488.

114 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج7 /448.

العنصر السابع: النظر في الكون أساسا في الاختيار.

لم يقتصر الحافظ ابن بطال في اختياراته الفقهية على العلوم الشرعية فحسب، بل تعداها إلى علوم أخرى مبنية في أساسها على تدبر الكون والتأمل فيه كعلم الفلك.

ولذلك سخر هذه الثقافة في تضاعيف كتابه ليختار بواسطتها ما هو أليق وأرجح من أقوال العلماء.

يقول الحافظ في باب فضل الجمعة: « وقول ابن حبيب خطأ لا خفاء به لأن أهل العلم بالأوقات والحساب لا يختلفون أن الشمس تزول في أول الساعة السابعة، وتقع الصلاة إذا فاء الفيء ذراعا وذلك في الساعة الثامنة بعد مسير خمسها في زمن الصيف، وبعد مسير نصفها في زمن الشتاء»[118] .

ويقول كذلك في باب من خرج من اعتكافه عند الصبح: «وهذا هو الصحيح (أي من خرج من معتكفه ليلة الفطر أنه لا

118 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج2 /480.

شيء عليه) لأن ليلة العيد ليس بموضع اعتكاف، والعشر يزول بزوال الشمس والعشر يزول بزوال الشهر، والشهر ينقضي بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان، فدل هذا أن قول مالك الأول أنه استحباب ليتصل له نسك بنسك لا أنه واجب»[119].

119 . شرح صحيح البخاري لابن بطال ج4 / 177.

الفصل الثاني:

أثر ابن بطال فيمن بعده :ابن حجر نموذجا.

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: اعتبارات تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال.

المبحث الثاني: نتائج تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال.

تمهيد:

غالبا ما يتبادر إلى أذهان غير المتخصصين أن المغاربة لم يبدعوا في تآليفهم العلمية وأن ما وصلوا إليه إنما هو نتيجة لتقليدهم لإخوانهم المشارقة !

والناظر المتفحص يجد غير هذا؛ فقد أجاد المغاربة في تصانيفهم العلمية وأفادوا ونبغت أسماء كثير منهم وطارت شهرتهم فطبقت الآفاق. فلمؤلفاتهم مكانة متميزة في مصنفات المشارقة إلى درجة أنهم اتكأوا عليها فصارت من مواردهم الأساسية التي منها ينهلون ومن المصادر الرئيسية التي عليها يعتمدون.

وللتدليل على هذا الأمر نورد نصوصا لعلماء خبراء في تخصصات متنوعة:

فقد اعتنى أهل المغرب بالقرآن الكريم أيما اعتناء فخلفوا مصنفات شيقة في هذا الباب اعتبرت من أهم الدراسات التي خدمت كتاب الله تعالى.

وفي هذا السياق لا ينبغي أن يغرب عن البال تفسير يحيى بن سلام الذي به وصلت الحلقة المفقودة بين القرن الأول والقرن الثالث من تاريخ تفسير القرآن الكريم كما بين ذلك الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بقوله: «وإنه لمما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام: أن الذين يشيرون إلى هذه الطريقة وخصائصها من الكاتبين حديثا في تاريخ التفسير، يبادرون إلى ضرب المثل بتفسير محمد بن جرير الطبري، فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني لأن تفسير الطبري ألف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع، والحال أن الحلقة التي يتم بها اتصال السلسلة وضاعت عن الكاتبين المحدثين في تاريخ التفسير من المستشرقين وغير المستشرقين هي حلقة أفريقية تونسية بالوقوف عليها يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري (...) ذلك هو تفسير يحيى بن سلام التميمي البصري الأفريقي المتوفى سنة 200 هـ»[119] .

أما في السيرة النبوية فإن المغاربة تلقوا كتب الرواد فعملوا على تصحيحها وتنقيحها ليصدروها من جديد إلى المشـــرق حيث

119 ـ التفسير ورجاله ص 27 ـ 28 .

أقبل عليها علماء هذا القطر الشقيق إقبالا فريدا. ونذكر من هذه المصنفات الشفا للقاضي عياض والروض الأنف للإمام السهيلي وجوامع السيرة لابن حزم...

وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد يسف: «رأيت من خلال هذه النماذج العناية الفائقة التي أحاط بها المشارقة كتاب السيرة المغربي، واستخلصت من ذلك استبعاد شبهة التقليد والتكرار لسابق عطاء المشارقة، إذ لو كان شيء من ذلك قد حصل ما نالت مثل هذا الاهتمام من طرف جهابذة أعلام، يرصدون كل خطوة جادة على طريق المعرفة، ويباركون كل إضافة حقيقية تزيد في رصيد الأمة الفكري، وتغني عطاءها العلمي»[120] .

وإيمانا منه رحمه الله تعالى بما أبدعه المغاربة من مصنفات وتآليف وما ضمنوها من درر و كنوز، ألف الشيخ عبد الله كنون كتابه النبوغ المغربي موضحا فيه العبقرية المغربية في التصنيف والتأليف داحضا بذلك تلك المزاعم القائلة بأن المغاربة عالة على المشارقة!

يقول رحمه الله تعالى: «ثم لما بحثت ونقبت، وجدت كنوزا عظيمة من أدب لا يقصر في مادته عن أدب أي قطر من

120 . المصنفات المغربية للسيرة النبوية ومصنفوها للدكتور محمد يسف ج 1 / 13 .

الأقطار العربية الأخرى، وشخصيات علمية وأدبية لها في مجال الإنتاج والتفكير مقام رفيع، ولكن الإهمال قد عفى على ذلك كله، وعدم الاهتمام بجمعه في كتاب، والتنبيه عليه في خطاب أدى إلى وأده، فاحتاج إلى من يبعثه من مرقده»[121] .

وقد صدق الأديب المغربي حينما اعتبر الإهمال وعدم الاهتمام السر الأساس في عدم المعرفة بكنوز التراث المغربي، وهو الرأي نفسه الذي جنح إليه المحدث المغربي إبراهيم بن الصديق رحمه الله تعالى إذ قال : «وربما استمر هذا الإهمال من المغاربة لعلمائهم إلى العصور المتأخرة حيث أخذ الناس في مختلف الأقطار ينقبون عن تراثهم و يبرزون آثار علمائهم، كما هو مشاهد»[122] .

لقد برع علماء المغرب وعلا كعبهم في ميادين علمية متنوعة نالوا بها قصب السبق بين علماء الدنيا.

121 ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي للشيخ عبد الله كنون ج 1 / 8 .

122 ـ علم علل الحديث من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لأبي الحسن بن القطان الفاسي ج 1 / 16 .

يروى أن رجلا حضر مجلس الحافظ ابن عبد البر وأعجب بحفظه وإتقانه، فخاطبه يا حافظ المغرب، فأجابه أبو عمر: لعلك تريد أن الخطيب البغدادي حافظ المشرق، فسكت وصادف أن رحل الرجل إلى الشرق، وأدى فريضة الحج، وحضر مجلس الخطيب البغدادي وسمع منه، ثم عاد إلى الأندلس، واستمع من ابن عبد البر مرة أخرى، ووجد البون شاسعا، ولما انتهى المجلس، قال له: يا حافظ... يريد يا حافظ المغرب والمشرق، فحذف كلمة المغرب لأنها وردت في خطابه سابقا، وحذف كلمة المشرق لأنها وردت في كلام الشيخ ابن عبد البر. وكم كان الفرق بين الوقتين [123].

وإذا نظرنا في مجال الحديث النبوي ـ موضوع دراستنا ـ نجد الحضور المكثف لأعلام الغرب الإسلامي كعياض وابن التين وابن العربي و القرطبي... في مصنفات المشارقة.

فهذا ابن بطال أفاد منه من جاء بعده من المغاربة والمشارقة واعتمدوا كتابه وبات عندهم حجة.

123 ـ التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي ج 1 / 122.

ويكفي الباحث دليلا على هذا الملحظ أن يجول ببصره في ثنايا كتبهم ليتأكد من ذلك من خلال الحضور القوي لابن بطال في تواليفهم العلمية.

ونذكر من هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر:

أبو بكر بن العربي المعافري (ت 543 هـ) وابن التين (ت 611 هـ) والإمام النووي (ت676هـ) والزين بن منير (ت 695 هـ) وابن رشيد السبتي (ت 721 هـ) وعلاء الدين مغلطاي (ت762هـ) والإمام الكرماني (ت 786هـ) والبدر الزركشي (ت 794 هـ) والحافظ ابن حجر(ت 852 هـ) والإمام بدر الدين العيني (ت 855 هـ) والإمام السيوطي (ت 911 هـ) والإمام القسطلاني (ت 923 هـ)... .

ولعل أهم ما يتبدى لقارئ مصنفات هؤلاء الأعلام ولاسيما المشرقية منها [125] التي خصها أصحابها لشرح الجامع الصحيح للإمام البخاري الكم الهائل من النقول التي أخذوها عن الإمام ابن بطال فأفادوا منها في تصانيفهم الحديثية .

---

125 ـ يقصد بها فتح الباري لابن حجر. وعمدة القاري للعيني، والكواكب الدراري للكرماني، وإرشاد الساري للقسطلاني.

فقد تجاوز ذكر ابن حجر لابن بطال في «فتح الباري» 1300 مرة، كما فاق عند بدر الدين العيني في «عمدة القاري» 1200 مرة.

بينما تجاوز عند الإمام الكرماني في «الكواكب الدراري» 400 مرة. في حين بلغ عند الإمام القسطلاني في «إرشاد الساري» أكثر من 270 مرة.

وهي أرقام شاهدة على التأثير العلمي البارز للإمام ابن بطال على المشارقة.

ولبيان هذا الأثر سنقدم الحافظ ابن حجر نموذجا لهؤلاء العلماء الذين أفادوا من جهوده العلمية واجتهاداته المعرفية.

وقد تم اختيار ابن حجر لأسباب منها :

- المكانة العلمية التي يتبوأها مصنفه فتح الباري؛ فهو أحسن شرح وضع للجامع الصحيح كما هو معروف عند الدارسين، بالإضافة إلى الدرجة العلمية لصاحبه. مما يرشحه ليكون أفضل نموذج لتأثر المشارقة بإخوانهم المغاربة.

- كثرة نقول ابن حجر عن ابن بطال، مما يوفر المادة العلمية الكافية لاستخلاص أثر ابن بطال في الحافظ ابن حجر من خلال العمل على تصنيف هذه النقول[126] وفق معايير معينة تسعفنا في الكشف عن مجالات إفادة ابن حجر عن ابن بطال.

ولذلك سينصب هذا الفصل على دراسة هذه النقول من خلال

مبحثين أساسيين، وهما:

- اعتبارات تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال.
- نتائج تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال.

126 - اقتصرنا على النقول التي صرح الحافظ ابن حجر بنقلها عن الحافظ ابن بطال .

المبحث الأول: اعتبارات تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال.

تتعدد اعتبارات التصنيف لنقول ابن حجر عن ابن بطال بتعدد جوانب الدراسة المراد طرقها، فهناك اعتبار الكم، وهناك اعتبار الحقل المعرفي، وهناك اعتبار الموقف النقدي...

ودرءا لكل تطويل، وإيرادا لما له صلة بموضوعنا، نقتصر في تصنيف هذه النقول على أربعة اعتبارات، وهي:

الأول: اعتبار حجم الورود بحسب كتب الجامع.
الثاني: اعتبار أبواب الجامع.
الثالث: اعتبار الحقل المعرفي.
الرابع: اعتبار الموقف النقدي.

المطلب الأول: اعتبار حجم الورود بحسب كتب الجامع.

يقصد بالكتاب عند المحدثين ذلك العنوان العام الذي يشكل الإطار العام للأحاديث التي يوردها المصنف موزعة على أبواب.

وقد عرفه نور الدين عتر بقوله: « أن تجمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد إلى بعضها البعض، تحت عنوان عام يجمعها، مثل « كتاب الصلاة» « كتاب الزكاة» « كتاب البيوع» ثم توزع الأحاديث على أبواب، يضم كل باب أحاديث في مسألة جزئية، ويوضع لهذا الباب عنوان يدل على الموضوع، مثل «باب مفتاح الصلاة الطهور»، ويسمي المحدثون العنوان(ترجمة)»[127] .

وإعمالا لاعتبار حجم الورود بحسب كتب الجامع نورد الكتب التي وردت فيها نقول ابن حجر عن ابن بطال وفق الجدول الآتي:

127 ـ منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر ص 197 ـ 198.

الكتاب	عدد النقول
الأدب	77
التوحيد	68
الأذان	52
الاعتصام بالكتاب والسنة	40
الرقائق	38
الاستئذان	37
اللباس	36
البيوع	35
الصلاة	35
الفتن	35
الأحكام	35
الجهاد والسير	33

النكاح	31
الطلاق	28
الحدود	28
الأطعمة	27
الدعوات	25
الفرائض	25
الهبة	23
الوضوء	23
الزكاة	23
الطب	22
الديات	22
الجنائز	20
فرض الخمس	19

الأشربة	18
التعبير	15
فضائل القرآن	15
الجمعة	13
التهجد	13
الأيمان والنذور	13
الحيل	13
استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم	12
الإكراه	12
مواقيت الصلاة	12
الصوم	12
العلم	11
الغسل	11

العتق	11
تفسير القرآن	10
تقصير الصلاة	09
جزاء الصيد	09
الحيض	08
الحرث والمزارعة	08
العمرة	08
النفقات	08
المغازي	08
المساقاة	07
فضائل الصحابة	07
العيدين	07
الاستسقاء	07

الوصايا	07
الجزية والموادعة	07
التيمم	06
الشركة	06
الشهادات	06
القدر	06
اللقطة	05
كفارات الأيمان والنذور	05
المرضى	05
الوكالة	05
الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس	05
المظالم	04
الذبائح والصيد	04

الأنبياء	04
التمنى	04
الأضاحى	04
سجود القرآن	04
العمل فى الصلاة	04
الإجارة	04
الصلح	03
المناقب	03
الاعتكاف	03
الشروط	02
مناقب الأنصار	02
السلم	02
الشفعة	02

02	الحوالة
02	الدين
01	السهو
01	المحصر
01	فضائل المدينة
01	صلاة التراويح
01	الخصومات
01	الرهن

المطلب الثاني: اعتبار أبواب الجامع.

الجامع في اصطلاح المحدثين هو كتاب الحديث المرتب على الأبواب الذي يوجد فيه أحاديث في جميع موضوعات الدين وأبوابه، وعددها ثمانية أبواب رئيسية هي: العقائد، الأحكام، السير، الآداب، التفسير، الفتن، أشراط الساعة، المناقب[128].

ويأتي في طليعة هذه الجوامع الجامع الصحيح للإمام البخاري الذي سار فيه صاحبه على النهج المذكور. وقد سلك الحافظ ابن حجر المسلك نفسه في كتابه فتح الباري، إذ تتبع في شرحه أبواب الجامع الصحيح، وهو ما فعله كذلك ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري.

وإذا كان البحث يتمحور حول نقول ابن حجر عن ابن بطال، فلنا أن نصنف هذه النقول باعتبار أبواب الجامع مكتفين في ذلك بذكر الكتاب وعدد النقول الواردة فيه كما يظهر من الجدول الآتي:

---

128 ـ منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عترص 198 ـ 199 .

المحور	الكتاب	عدد النقول
العقائد	كتاب الوحي	05
	كتاب الإيمان	09
	كتاب الأنبياء	04
	كتاب القدر	06
	كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم	12
	كتاب التوحيد	77
	كتاب التعبير	15
الأحكام	كتاب العلم	11
	كتاب الوضوء	25
	كتاب الغسل	11
	كتاب الحيض	08
	كتاب التيمم	06
	كتاب الصلاة	35
	كتاب مواقيت الصلاة	14

	كتاب الأذان	52
	كتاب الجمعة	13
	كتاب العيدين	07
	كتاب الاستسقاء	07
	كتاب الكسوف	03
	كتاب سجود القرآن	04
	كتاب تقصير الصلاة	09
	كتاب التهجد	13
	كتاب العمل فى الصلاة	04
	كتاب السهو	01
	كتاب الجنائز	20
	كتاب الزكاة	23
	كتاب العمرة	08
	كتاب المحصر	01
	كتاب جزاء الصيد	09
	كتاب الصوم	12

	كتاب صلاة التراويح	01
	كتاب الاعتكاف	03
	كتاب البيوع	35
	كتاب السلم	02
	كتاب الشفعة	02
	كتاب الإجارة	04
	كتاب الحوالة	02
	كتاب الدين	02
	كتاب الوكالة	05
	كتاب الحرث والمزارعة	08
	كتاب المساقاة	07
	كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس	05
	كتاب الخصومات	01
	كتاب اللقطة	05
	كتاب المظالم	04

	كتاب الشركة	06
	كتاب الرهن	01
	كتاب العتق	12
	كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها	22
	كتاب الشهادات	06
	كتاب الصلح	03
	كتاب الشروط	02
	كتاب الوصايا	07
	كتاب فرض الخمس	19
	كتاب الجزية والموادعة	07
	كتاب النكاح	30
	كتاب الطلاق	28
	كتاب النفقات	08
	كتاب الأطعمة	27
	كتاب الذبائح والصيد	04

	الكتاب	العدد
	كتاب الأضاحي	04
	كتاب الأشربة	17
	كتاب المرضى	05
	كتاب الطب	22
	كتاب اللباس	36
	كتاب الأيمان والنذور	13
	كتاب كفارات الأيمان	05
	كتاب الفرائض	24
	كتاب الحدود	28
	كتاب الديات	22
	كتاب الإكراه	12
	كتاب الحيل	13
	كتاب الأحكام	34
	كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة	40
السير	كتاب الجهاد والسير	33
	كتاب المغازي	08

الآداب	كتاب الأدب	77
	كتاب الاستئذان	37
	كتاب الدعوات	25
	كتاب الرقائق	38
	كتاب التمنى	04
التفسير	كتاب تفسير القرآن الكريم	10
	كتاب فضائل القرآن	15
الفتن	كتاب الفتن	34
أشراط الساعة		00
المناقب	كتاب فضائل المدينة	01
	كتاب المناقب	03
	كتاب فضائل الصحابة	06
	كتاب مناقب الأنصار	02

المطلب الثالث: اعتبار الحقل المعرفي.

من الملاحظ أن ابن حجر نقل عن ابن بطال نصوصا متنوعة غطت جل صنوف المعرفة الشرعية والآلية، فقد أورد أقوال ابن بطال في أصول الدين، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه وأصوله، واللغة وآدابها...

وبيانا لهذا الاعتبار، سيأتي هذا المطلب في خمسة عناصر، وهي:

- العنصر الأول : أصول الدين.
- العنصر الثاني : علوم القرآن.
- العنصر الثالث : علوم الحديث .
- العنصر الرابع : الفقه وأصوله.
- العنصر الخامس: علوم اللغة .

العنصر الأول: أصول الدين.

ويعرف كذلك بالتوحيد والعقيدة. وهو علم يتمحور حول ثلاثة محاور وهي: الربوبية والألوهية والصفات. قال العلامة ابن أبي العز الحنفي: « فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع : أحدها: الكلام في الصفات. والثاني: توحيد الربوبية، والثالث: توحيد الألوهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له»[129].

وإذا كانت العقيدة «مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل، والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا»[130] ، فإن هنالك قضايا أثير حولها نقاش ، وأدى إلى ظهور فرق كلامية من معتزلة وإباضية ومرجئة...

---

129 ـ شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي ص 78 .

130 ـ عقيدة المومن لأبي بكر جابر الجزائري ص 18 .

وقد عمل ابن بطال على الرد على هذه الفرق والانتصار لآراء أهل السنة والجماعة بأدلة دامغة وبراهين ساطعة جعلت ابن حجر يعتمدها في تحرير آرائه العقدية.

وتوضيحا لهذا نورد الأمثلة الآتية:

ـ المثال الأول:

قال ابن حجر في باب و كان الله سميعا بصيرا: «قوله باب و كان الله سميعا بصيرا قال ابن بطال غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال أن معنى سميع بصير عليم.

قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها، و الأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتا ولا يسمعها ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدرا زائدا على كونه عليما و كونه سميعا بصيرا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر كما تضمن كونه

عليما أن يعلم بعلم ولا فرق بين إثبات كونه سميعا بصيرا و كونه ذا سمع وبصر قال وهذا قول أهل السنة قاطبة»[131] .

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب ويسألونك عن الروح : « وقال ابن بطال: معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر قال والحكمة في إبهامه اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدر كونه حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه [132] ، وقال القرطبي والحكمة في ذلك إظهار عجز المرء لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب الأولى، وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى: « يوم يقوم الروح والملائكة صفا »[133] قال وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفسا كذا قال[134] ولا دلالة في ذلك لما رجحه بل الراجح الأول فقد أخرج الطبري

131 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 10 / 416 ـ 417 و فتح الباري ج 13 / 373.

132 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 204.

133 - سورة النبأ جزء من الآية 38.

134 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 204.

من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح وكيف يعذب الروح الذي في الجسد وإنما الروح من الله فنزلت الآية، وقال بعضهم ليس في الآية دلالة على أن الله لم يطلع نبيه على حقيقة الروح بل يحتمل أن يكون أطلعه ولم يأمره أنه يطلعهم وقد قالوا في علم الساعة نحو هذا والله أعلم»[135] .

ـ المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا : «قال ابن بطال غرض البخاري في هذا الباب إثبات نسبة الأفعال كلها لله تعالى سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا فهي لله تعالى خلق وللعباد كسب ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله تعالى فيكون شريكا وندا ومساويا له في نسبة الفعل إليه، وقد نبه الله تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصرحة بنفي الأنداد والآلهة المدعوة معه فتضمنت الرد على من يزعم أنه يخلق أفعاله ومنها ما حذر به المومنين أو

135 ـ فتح الباري ج 8 / 403.

أثنى عليهم ومنها ما وبخ به الكافرين[136] ، وحديث الباب ظاهر في ذلك[137] »[138] .

العنصر الثاني: علوم القرآن.

يعرف محمد عبد العظيم الزرقاني علوم القرآن بقوله: «أما بعد، فقد تبين لك فيما سبق، أن لفظ علوم القرآن يراد بمعناه الإضافي ما يشمل العلوم الدينية والعربية، ونفيدك أن هذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافي، ثم جعل علما على الفن المدون، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علم، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافي، ضرورة أن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية، بل هو غيرها، وإن كان مستمدا منها، ومأخوذا عنها، ويمكن أن نعرفه: بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، و كتابته

---

136 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 10 / 521-522.

137 - يقصد الحديث التالي : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله قال : سألت النبي صلى الله عليه و سلم أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) . قلت إن ذلك لعظيم قلت ثم أي ؟ قال (ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك) . قلت ثم أي ؟ قال (ثم أن تزاني بحليلة جارك) .

138 - فتح الباري ج 13 / 491 .

وقراءته وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك»[139].

لقد استفاد ابن حجر من ابن بطال في مجال علوم القرآن حيث كان يؤكد آراءه ويثبت توجهاته ويرجح اختياراته.

ومن أمثلة ذلك:

ـ المثال الأول:

قال ابن حجر في باب القراءة في العصر: «وفي تفسير الأخرى ثلاثة أقوال المحفوظ منها الأنعام. قال ابن بطال البقرة أطول السبع الطوال فلو أرادها لقال طولى الطوال فلما لم يردها دل على أنه أراد الأعراف لأنها أطول السور بعد البقرة[140]، وتعقب بأن النساء أطول من الأعراف وليس هذا التعقيب بمرضي لأنه اعتبر عدد الآيات، وعدد آيات الأعراف أكثر من عدد آيات النساء وغيرها من السبع بعد البقرة، والمتعقب اعتبر

139 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ج 1 / 31 .
140 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 2 /381 .

عدد الكلمات لأن كلمات النساء تزيد على كلمات الأعراف بمائتي كلمة. وقال ابن المنير تسمية الأعراف والأنعام بالطوليين إنما هو لعرف فيهما لا أنهما أطول من غيرهما، والله أعلم»[141].

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب تأليف القرآن: «قال ابن بطال لا نعلم أحدا قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة والحج قبل الكهف مثلا. وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوسا فالمراد به أن يقرأ من آخر السور إلى أولها و كان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها وتذليلا للسانه في سردها فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه[142] وقال القاضي عياض في شرح حديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاته في الليل بسورة النساء قبل آل عمران وهو كذلك في مصحف أبي بن كعب وفيه حجة لمن يقول أن ترتيب السور اجتهاد وليس

141 ـ فتح الباري ج 2 / 247.
142 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 10 / 239.

بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول جمهور العلماء واختاره القاضي الباقلاني قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التعليم فلذلك اختلفت المصاحف فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن فلذلك اختلف ترتيب مصاحف الصحابة ثم ذكر نحو كلام ابن بطال ثم قال ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها صلى الله عليه وسلم»[143].

ـ المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب الدواء بالعسل : « قوله باب الدواء بالعسل وقول الله تعالى: « فيه شفاء للناس » كأنه أشار بذكر الآية إلى الضمير فيها للعسل وهو قول الجمهور وزعم بعض أهل التفسير أنه للقرآن، وذكر ابن بطال أن بعضهم قال إن قوله تعالى: «فيه شفاء للناس» أي لبعضهم[144]، وحمله على ذلك أن تناول العسل قد يضر ببعض الناس كمن يكون حار

143 ـ فتح الباري ج 9 / 40 .

144 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 9 / 395 .

المزاج لكن لا يحتاج إلى ذلك لأنه ليس في حمله على العموم ما يمنع أنه قد يضر ببعض الأبدان بطريق العرض.»[145].

العنصر الثالث: علوم الحديث.

يقصد بعلوم الحديث جملة من الأدوات والقواعد التي يعملها المحدث للتأكد من سلامة النص الحديثي المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا لفهمه فهما سليما كما قاله النبي الكريم. فهي إذن تنكب على دراسة الحديث رواية ودراية [146].

وقد وظف ابن بطال مختلف علوم هذا الفن لبناء صرح كتابه « شرح صحيح البخاري » فجاء كتابه نفيسا يتنافس فيه[147] مما جعل ابن حجر يعتمد آراءه الحديثية ويذهب مذهبه في أحايين كثيرة.

---

145 ـ فتح الباري ج 10 / 140 .

146 ـ «علم الحديث دراية يوصل إلى معرفة المقبول من المردود بشكل عام أي بوضع قواعد عامة. أما علم رواية الحديث فإنه يبحث في هذا الحديث المعين الذي تريده، فيبين بتطبيق تلك القواعد أنه مقبول أو مردود، ويضبط روايته وشرحه، فهو إذن يبحث بحثا جزئيا تطبيقيا، فالفرق بينهما كالفرق بين النحو وبين الإعراب وكالفرق بين أصول الفقه وبين الفقه. » أنظر منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عترص 34.

147 ـ ترتيب المدارك ج 8 / 160 .

وهذه النصوص توضح ذلك بجلاء:

ـ المثال الأول:

قال ابن حجر في باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى: « وفيه فضيلة المبادرة بالصلاة في الوقت الفاضل وقبول خبر الواحد الثبت، واستدل به ابن بطال وغيره على أن الحجة بالمتصل دون المنقطع لأن عروة أجاب عن استفهام عمر له لما أن أرسل الحديث بذكر من حدثه به فرجع إليه بالحق عمر قال له تأمل ما تقول فلعله بلغك عن غير ثبت فكأن عروة قال له بل قد سمعته ممن قد سمع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والصاحب قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم[148] واستدل به عياض على جواز الاحتجاج بمرسل الثقة كصنيع عروة حين احتج على عمر قال وإنما راجعه عمر لتثبته فيه لا لكونه لم يرض به مرسلا كذا قال، وظاهر السياق يشهد لما قال ابن بطال»[149] .

148 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 2 / 149 .

149 - فتح الباري ج 2 / 6 .

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب الدين : «قوله باب الدين كذا للأصيلي و كريمة وسقط الباب وترجمته من رواية أبي ذر وأبي الوقت وسقط الحديث أيضا من رواية المستملي ووقع للنسفي وابن شبويه باب بغير ترجمة وبه جزم الإسماعيلي، وأما ابن بطال فذكر هذا الحديث في آخر باب من تكفل عن ميت بدين [150] وصنيعه أليق لأن الحديث لا تعلق له بترجمة جوار أبي بكر حتى يكون منها أو ثبتت باب بلا ترجمة فيكون كالفصل منها، وأما من ترجم له باب الدين بعيد إذ اللائق بذلك أن يكون في كتاب القرض» [151].

- المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب الاستخلاف: « قوله قال يعني عمر كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى يدبرنا ضبطه ابن بطال وغيره بفتح أوله وسكون الموحدة

150 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 6 / 426 .
151 . فتح الباري ج 4 / 477 .

أي يكون آخرنا [152]، قال الخليل دبرت الشيء دبرا اتبعته ودبرني فلان جاء خلفي وقد فسره في الخبر بقوله يريد بذلك أن يكون آخرهم، ووقع في رواية عقيل ولكن رجوت أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبر أمرنا وهو بتشديد الموحدة وعلى هذا فيقرأ الذي في الأصل كذلك، والمراد بقوله يدبرنا يدبر أمرنا لكن وقع في رواية عقيل أيضا حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرنا وهذا كله قاله عمر معتذرا عما سبق منه حيث خطب قبل أبي بكر حين مات النبي صلى الله عليه و سلم فقال أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يمت...» [153].

152 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 8 / 281.
153 - فتح الباري ج 13 / 209.

العنصر الرابع: الفقه و أصوله.

أصول الفقه « من العلوم التي عم نفعها وعظمت فائدتها، فقد استطاع به المجتهدون فطرة واستعدادا، أو دراسة واكتسابا أن يستثمروا نصوص الشريعة، وأن يستنبطوا بها الأحكام من أدلتها التفصيلية على أكمل وجه وأتقنه، وأوضح طريق وأبينه »[154] .

أما الفقه فهو « مخصوص بالعلم الحاصل بجملة من الأحكام الشرعية الفروعية بالنظر والاستدلال »[155] .

ونظرا لأهمية هذا العلم في ضبط اجتهاد المجتهدين وتحقيق مناطات الأحكام الشرعية بالنظر إلى فقه التنزيل ومراعاة المآلات... فقد اعتمده ابن بطال في ترجيحاته وتوجهاته واختياراته الفقهية بغية بناء رأي فقهي سديد.

وقد كان يعتمد في هذا على النظر والاستدلال أحيانا، وعلى النقل عن بعض أعمدة المذهب المالكي أحيانا أخرى.

154 ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج 1 / 3 .
155 ـ المصدر نفسه ج 1 / 6 .

إن غنى الثروة الفقهية لكتاب «شرح صحيح البخاري» لابن بطال حفز ابن حجر على استحضار اجتهادات العلم المغربي في تضاعيف فتح الباري.

والأمثلة الآتية تجلي ما ذكر:

- المثال الأول:

قال ابن حجر في باب الغسل مرة واحدة : «قوله باب الغسل مرة واحدة قال ابن بطال يستفاد ذلك من قوله ثم أفاض على جسده لأنه لم يقيد بعدد فيحمل على أقل ما يسمى وهو المرة الواحدة لأن الأصل عدم الزيادة عليها»[156].

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب قوله صلى الله عليه وسلم أحلت لكم الغنائم: « واستدل به ابن بطال على جواز إحراق أموال المشركين[157] وتعقب بأن ذلك كان في تلك الشريعة وقد نسخ بحل الغنائم لهذه الأمة، وأجيب عنه بأنه لا يخفى

156 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 /374 و فتح الباري ج 1 / 369 .

157 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 5 / 279.

عليه ذلك ولكنه استنبط من إحراق الغنيمة بأكل النار جواز إحراق أموات الكفار إذا لم يوجد السبيل إلى أخذها غنيمة وهو ظاهر لأن هذا القدر لم يرد التصريح بنسخه فهو محتمل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخه...»[158] .

- المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب تفسير ترك الخطبة : «قال ابن بطال ما ملخصه[159] تقدم في الباب الذي قبله تفسير ترك الخطبة صريحا في قوله حتى ينكح ويترك وحديث عمر في قصة حفصة لا يظهر منه تفسير ترك الخطبة لأن عمر لم يكن علم أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب حفصة قال ولكنه قصد معنى دقيقا يدل على ثقوب ذهنه ورسوخه في الاستنباط وذلك أن أبا بكر علم أن النبي صلى الله عليه و سلم إذا خطب إلى عمر أنه لا يرده بل يرغب فيه وشكر الله على ما أنعم الله عليه به من ذلك فقام علم أبي بكر بهذا الحال مقام الركون والتراضي فكأنه يقول كل من علم أنه لا يصرف إذا

158 - فتح الباري ج 6 / 224 .

159 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 7 / 261 .

خطب لا ينبغي لأحد أن يخطب على خطبته وقال ابن المنير الذي يظهر لي أن البخاري أراد أن يحقق امتناع الخطبة على الخطبة مطلقا لأن أبا بكر امتنع ولم يكن انبرم الأمر بين الخاطب والولي فكيف لو انبرم وتراكنا فكأنه استدلال منه بالأولى. قلت وما أبداه ابن بطال أدق وأولى والله أعلم»[160] .

---

160 - فتح الباري ج 9 / 201 .

العنصر الخامس: علوم اللغة.

يعد العلم بقواعد اللغة العربية من أهم الشروط الواجب توفرها في مفسر القرآن الكريم وشارح الحديث النبوي الشريف. وقد وظف الحافظ ابن بطال جملة من قواعد اللغة و أساليبها أحسن توظيف بغية الكشف عن مراد قوله صلى الله عليه و سلم في أحاديث الجامع الصحيح.

إن حسن استعمال ابن بطال للأداة اللغوية جعلت ابن حجر يورد كثيرا من آرائه اللغوية في سبيل بناء مصنفه فتح الباري.

وللتدليل على ما ذكر نورد هذه الأمثلة:

ـ المثال الأول:

قال الحافظ ابن حجر في باب لا ينفر صيد الحرم : «قال ابن بطال: المراد بقوله ولا تحل لأحد بعدي الإخبار عن الحكم في ذلك لا الإخبار بما سيقع لوقوع خلاف ذلك في الشاهد كما وقع من الحجاج و غيره انتهى[161]. ومحصله أنه خبر بمعنى النهي بخلاف

161 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 4 / 505 .

قوله فلم تحل لأحد قبلي فإنه خبر محض أو معنى قوله ولا تحل لأحد بعدي أي لا يحلها الله بعدي لأن النسخ ينقطع بعده لكونه خاتم النبيين»[162] .

ـ المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب الظهار: « وقال ابن بطال يشبه أن تكون ما[163] بمعنى من أي اللواتي قالوا لهن أنتن علينا كظهور أمهاتنا قال ويجوز أن يكون قالوا بتقدير المصدر أي يعودون للقول فسمى المقول فيهن باسم المصدر وهو القول كما قالوا درهم ضرب الأمير وهو مضروب الأمير[164] والله أعلم بالصواب»[165].

ـ المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب قول الرجل للرجل اخسأ: «قوله باب قول الرجل للرجل اخسأ سيأتي بيانه في آخر الباب قال ابن بطال اخسأ زجر للكلب وإبعاد له[166] هذا أصل هذه

162 ـ فتح الباري ج 4 / 46 .

163 ـ المقصود ما الواردة في قوله تعالى: «والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا» سورة المجادلة جزء من الآية 3.

164 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 7 / 454 .

165 ـ فتح الباري ج 9 / 435 .

166 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 9 / 333 .

الكلمة واستعملتها العرب في كل من قال أو فعل ما لا ينبغي له مما يسخط الله ذ كر فيه حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد قد خبأت لك خبئا قال فما هو قال الدخ قال اخسأ وأخرجه من رواية عبد الله بن عمر قال انطلق عمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من أصحابه قبل ابن صياد فذ كر الحديث مطولا ، وفيه اخسأ فلن تعدو قدرك ، وقد سبق مطولا في أواخر كتاب الجنائز، وقوله في هذه الرواية فرضه النبي صلى الله عليه وسلم قال الخطابي وقع هنا بالصاد المعجمة وهو غلط والجواب بالصاد المهملة أي قبض عليه بثوبه يضم بعضه إلى بعض، وقال ابن بطال [167] من رواه بالمعجمة فمعناه دفعه حتى وقع فتكسر يقال رض الشيء فهو رضيض ومرضوض إذا انكسر»[168] .

167 - المصدر نفسه ج 9 / 334.
168 . فتح الباري ج 10 / 561 .

المطلب الرابع: اعتبار الموقف النقدي.

إن التأمل في نقول ابن حجر عن ابن بطال يفضي بنا إلى القول إن لابن حجر في تعامله مع هذه النقول ثلاثة مواقف وهي: موافقة، واستدراك، واعتراض.

وعليه، سيأتي هذا المطلب مفرعا إلى ثلاثة عناصر:

_ موافقة أقواله.
_ الاستدراك عليه .
_ مخالفة أقواله .

العنصر الأول: موافقة ابن حجر لأقوال ابن بطال.

اعتمد ابن حجر في بناء صرح كتابه فتح الباري على أقوال ابن بطال حيث صارت له في العديد من الأحيان الملاذ الذي يلجأ إليه لترجيح مذهبه وتقوية رأيه.

وهذه أمثلة من موافقاته لأقوال ابن بطال:

ـ المثال الأول:

قال ابن حجر في باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:« ونقل ابن بطال عن أبي عبد الله بن النجار قال: التبويب يتعلق بالآية والحديث معا لأن الله تعالى أوحى إلى الأنبياء ثم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أن الأعمال بالنيات لقوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين»[169]»[170].

---

169 - سورة البينة جزء من الآية 5 .

170 ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 32 وفيه وقال أبو عبد الله بن الفخار وليس ابن النجار كما في فتح الباري ج 1 / 10.

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب دون ترجمة : « قال ابن بطال غرض البخاري الرد على من يكفر بالذنوب كالخوارج ويقول إن من مات على ذلك يخلد في النار والآية ترد عليهم لأن المراد بقوله: « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»[171] من مات على كل ذنب سوى الشرك [172] . وقال الكرماني في استدلاله بقول أبي ذر عيرته بأمه نظر لأن التعبير ليس كبيرة وهم لا يكفرون بالصغائر. قلت استدلاله عليهم من الآية ظاهر ولذلك اقتصر عليه ابن بطال» [173] .

- المثال الثالث:

قال ابن حجر في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها: «وقال ابن بطال يمكن تخريج يا نساء المسلمات على تقدير بعيد وهو أن يجعل نعتا لشيء محذوف كأنه قال: يا نساء الأنفس المسلمات والمراد بالأنفس الرجال، ووجه بعده أنه

171 - سورة النساء جزء من الآية 116 .
172 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 86 .
173 - فتح الباري ج 1 / 85 .

يصير مدحا للرجال وهو صلى الله عليه وسلم إنما خاطب النساء قال: إلا أن يراد بالأنفس الرجال والنساء معا[174] وأطال في ذلك»[175] .

العنصر الثاني: استدراك ابن حجر على أقوال ابن بطال.

عرف الجرجاني الاستدراك بقوله: « والفرق بين الاستدراك والإضراب أن الاستدراك هو رفع توهم يتولد من الكلام المقدم رفعا شبيها بالاستثناء نحو جاءني زيد لكن وهم المخاطب أن عمرا جاء كزيد بناء على ملابسة بينهما وملاءمة، والإضراب هو أن يجعل المتبوع في حكم المسكوت عنه يحتمل أن يلابسه الحكم وألا يلابسه فنحو جاءني زيد بل عمرو يحتمل مجيء زيد وعدم مجيئه»[176].

كما عرفه المناوي بقوله: «الاستدراك تعقيب الكلام برفع ما يوهم ثبوته وهو معنى قولهم رفع توهم نشأ من كلام سابق»[177].

---

174 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 7 / 87 .
175 ـ فتح الباري ج 5 / 198.
176 ـ التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني ج 1/ 34 .
177 ـ التوقيف على مهمات التعاريف ص 56.

إن المقصود بالاستدراك في هذا البحث المعنى الحديثي كما قال نور الدين عتر: «المستدرك كتاب يخرج فيه صاحبه أحاديث لم يخرجها كتاب ما من كتب السنة، و هي على شرط ذلك الكتاب، أي رجالها يروى لهم ذلك الكتاب»[178] .

وهذا عين ما صنعه الحاكم في مستدركه على الصحيحين حيث أخرج فيه أحاديث على شرطهما لم يخرجاها أو على شرط أحدهما لم يخرجها.

ومعنى هذا أن الاستدراك المقصود به ها هنا هو ما اتفق عليه ابن حجر مع ابن بطال في الأصل لكنه يضيف أشياء لم يشر إليها ابن بطال أو يحتملها كلامه لرفع توهم نشأ من كلام سابق. وشرط هذه الإضافة ألا تكون معارضة لأصل الكلام.

وقد استدرك ابن حجر على ابن بطال في قضايا عديدة نذكر منها الأمثلة الآتية:

---

178 - منهج النقد في علوم الحديث لنور الدين عتر ص 260.

ـ المثال الأول:

قال ابن حجر في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأما الرؤيا الصالحة فقال ابن بطال لا ترد لأن السؤال وقع عما ينفرد عن الناس لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره انتهى[179]. والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءا من النبوة فهي باعتبار صدقها وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك»[180] .

ـ المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب الاستجمار وترا: «قال ابن بطال: كأن الصحابة أخروا الصلاة في أول الوقت طمعا أن يلحقهم النبي صلى الله عليه وسلم فيصلوا معه، فلما ضاق الوقت بادروا إلى الوضوء ولعجلتهم لم يسبغوه فأدركهم على ذلك فأنكر عليهم. قلت ما ذكره من تأخيرهم قاله احتمالا، ويحتمل أيضا أن يكونوا أخروا لكونهم على طهر أو لرجاء الوصول إلى الماء. ويدل عليه رواية مسلم حتى إذا كنا بماء

---

179 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 1 / 36.

180 ـ فتح الباري ج 1 / 20.

الطريق تعجل قوم العصر أي قرب وقتها فتوضأوا وهم عجال»[181] .

- المثال الثالث:

قال ابن حجر في باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه: «قال ابن بطال: كأن البخاري لم يرتض إسناده يعني حديث بريدة[182] فأدخل حديث ابن عباس[183] ليدل على معناه[184]. قلت: ليس هو على شرطه فلذلك اقتصر على الإشارة إليه وقد وجدت له شاهدا من حديث النعمان بن بشير أخرجه الطبراني وفيه زيادة الاستثناء وأخرج أحمد من حديث قيس بن سعد بدون هذه الزيادة، وفي الباب عدة أحاديث مرفوعة وموقوفة بمعنى ذلك»[185] .

---

181 - المصدر نفسه ج 1 / 265.

182 - يقصد به حديث : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي اذ جاءه رجل ومعه حمار فقال: يارسول الله اركب و تأخر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنت أحق بصدر دابتك الا أن تجعله لي قال : جعلته لك قال : فركب».

183 - يقصد حديث : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حمل قثم بين يديه و الفضل خلفه - أو قثم خلفه والفضل بين يديه- فأيهم شر أو أيهم خير».

184 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 9 / 186.

185 - فتح الباري ج 10 / 397.

العنصر الثالث: اعتراض ابن حجر على أقوال ابن بطال.

يقصد بالاعتراض هنا ما خالف فيه ابن حجر ابن بطال وخطأه فيه حيث يجنح إلى رأي مخالف لما ذهب إليه ابن بطال.

وهذه أمثلة توضيحية لاعتراضات ابن حجر على ابن بطال:

- المثال الأول:

قال ابن حجر في باب الخروج أي السفر في طلب العلم في باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل : «ووهم ابن بطال فزعم أن الحديث[186] الذي رحل فيه جابر إلى عبد الله بن أنيس هو حديث الستر على المسلم[187]، وهو انتقال من حديث إلى حديث، فإن الراحل في حديث الستر هو أبو أيوب الأنصاري رحل فيه إلى عقبة بن عامر الجهني»[188].

186 - يقصد قوله صلى الله عليه وسلم : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة .

187 - شرح صحيح البخاري ج 1 / 159.

188 ـ فتح الباري ج 1 / 175 .

- المثال الثاني:

قال ابن حجر في باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل: «قال ابن بطال: النوم وقت السحر كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم في الليالي الطوال وفي غير شهر رمضان[189] كذا قال، ويحتاج في إخراج الليالي القصار إلى دليل»[190] .

---

189 - شرح صحيح البخاري لابن بطال ج 3 /123.

190 - فتح الباري ج 3 / 15 .

المبحث الثاني:

نتائج تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال

ويتضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: نتائج التصنيف وفق حجم الورود بحسب كتب الجامع.

المطلب الثاني: نتائج التصنيف وفق أبواب الجامع.

المطلب الثالث: نتائج التصنيف وفق الحقل المعرفي.

المطلب الرابع: نتائج التصنيف وفق اعتبار الموقف النقدي.

المطلب الأول: نتائج التصنيف وفق اعتبار حجم الورود بحسب كتب الجامع

إن مما يلاحظ من خلال إعمال معيار التصنيف وفق حجم الورود بحسب كتب الجامع أن الحافظ ابن حجر اعتمد على نصوص ابن بطال في جل كتب الجامع. فقد بلغ عدد الكتب التي اعتمد نصوص شرحها ثمانية وثمانين كتابا من ضمن سبعة وتسعين كتابا أي بنسبة تناهز حوالي 90.72%، بمعنى أنه لم يفته من الإفادة منها إلا عدد قليل لم يتجاوز تسعة كتب ككتاب فضل الصلاة في مكة والمدينة و كتاب جزاء الصيد و كتاب الكفالة ...

وفي سياق آخر يلاحظ أن عدد نقوله يختلف باختلاف كتب الجامع الصحيح ، إذ أكثر النقل من بعض الكتب وتوسط من أخرى بينما لم يعتمد على نصوص البعض الآخر إلا بشكل محدود.

وبهذا يمكن الحديث عن ثلاث مجموعات:

- المجموعة الأولى: كتب أكثر النقل منها.

- المجموعة الثانية: كتب توسط في النقل منها.

- المجموعة الثالثة: كتب قل نقله منها.

والجدول الآتي يوضح هذه المجموعات:

المجموعة	الكتاب	عدد النقول
المجموعة الأولى	الآداب	77
	التوحيد	68
	الآذان	52
	الاعتصام بالكتاب والسنة	40
	الرقائق	38
	الاستئذان	37
	اللباس	36
	البيوع	35
	الصلاة	35

	الفتن	35
	الأحكام	35
	الجهاد والسير	35
	النكاح	33
المجموعة الثانية	الطلاق	28
	الحدود	28
	الأطعمة	27
	الدعوات	25
	الفرائض	25
	الهبة	23
	الوضوء	23
	الزكاة	23
	الطب	23
	الديات	22
	الجنائز	20
	فرض الخمس	19

18	الأشربة	
15	التعبير	
15	فضائل القرآن	
13	الجمعة	
13	التهجد	
13	الأيمان والنذر	
13	الحيل	
12	استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم	
12	الإكراه	
12	مواقيت الصلاة	
12	الصوم	
11	العلم	
11	الغسل	
11	العتق	
10	تفسير القرآن	

المجموعة الثالثة	تقصير الصلاة	09
	جزاء الصيد	09
	الحيض	08
	الحرث والمزارعة	08
	العمرة	08
	النفقات	08
	المغازي	08
	المساقاة	07
	فضائل الصحابة	07
	العيدين	07
	الاستسقاء	07
	الوصايا	07
	الجزية والمواعدة	07
	التيمم	06
	الشركة	06
	الشهادات	06

	القدر	06
	اللقطة	05
	كفارات الأيمان والنذر	05
	المرضى	05
	الوكالة	05
	الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس	05
	المظالم	04
	الذبائح والصيد	04
	الأنبياء	04
	التمني	04
	الأضاحي	04
	سجود القرآن	04
	العمل في الصلاة	04
	الإجارة	04
	الصلح	03

	المناقب	03
	الاعتكاف	03
	الشروط	02
	مناقب الأنصار	02
	السلم	02
	الشفعة	02
	الحوالة	02
	الدين	02
	السهو	01
	المحصر	01
	فضائل المدينة	01
	صلاة التراويح	01
	الخصومات	01
	الرهن	01

تبرز هذه الإحصائيات مدى إفادة ابن حجر من كتاب شرح صحيح البخاري لابن بطال، مما يؤكد القيمة النفيسة التي كانت للمصنف المغربي والاهتمام المتميز الذي حظي به من قبل المشارقة.

فنسبة 90,72 % المشار إليها سابقا نسبة ناطقة بحضور العالم المغربي ابن بطال في كتاب ابن حجر.

المطلب الثاني: نتائج التصنيف وفق أبواب الجامع.

يلاحظ من خلال أبواب الجامع التي شرحها ابن حجر في كتابه فتح الباري أن الحافظ المشرقي نقل عن ابن بطال نصوصا كثيرة متنوعة بحسب أبواب الجامع ماعدا باب أشراط الساعة إذ لم يعتمد أي نص لابن بطال في شرحه لأحاديث هذا الباب.

ومما يلاحظ كذلك إكثار ابن حجر من إيراد نصوص ابن بطال في باب الأحكام، مما يدل على أنه اتكأ على الحافظ المغربي في مجال الفقه. وهذا ليس غريبا، فكتاب شرح صحيح البخاري لابن بطال جله في الفقه.

فقد بلغت نقوله في الأحكام حوالي ثمانمائة وتسعة وثلاثين نقلا، يليها باب الآداب بمائة وواحد وثمانين نقلا، ثم العقائد بما يقارب مائة وثمانية وعشرين نقلا.

أما السير فكان مجموع نقوله حوالي واحد وأربعين، بينما كان مجموع الفتن أربعة وثلاثين نقلا، وخمسة وعشرين في التفسير، واثني عشر في المناقب.

وبالمقابل لم يعتمد ابن حجر كلام ابن بطال في أشراط الساعة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

و الجدول الآتي يوضح ترتيب أبواب الجامع بحسب عدد نقول ابن حجرعن ابن بطال.

الترتيب	المحور / الباب	عدد النقول
1	الأحكام	839
2	الآداب	181
3	العقائد	128
4	السير	41
5	الفتن	34
6	التفسير	25
7	المناقب	12
8	أشراط الساعة	00

المطلب الثالث: نتائج التصنيف وفق الحقل المعرفي.

إن أهم ما يميز نقول ابن حجر عن ابن بطال كونها شملت جل صنوف المعرفة الشرعية، فقد جاءت شاملة متنوعة لمجالاتها العلمية: في أصول الدين، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه وأصوله، واللغة...

وما يمكن استنتاجه هو أن الكتاب وإن كان جله في الفقه إلا أنه تضمن دررا ونكتا في علوم مختلفة أثارت ابن حجر ليعتمدها في تشييد معمار كتابه فتح الباري.

فقد بلغت نقوله في الفقه والأصول حوالي سبعمائة وخمسة وسبعين نقلا، بينما وصلت نقوله في الحديث قرابة أربعمائة وثلاثة عشر نقلا.

أما في أصول الدين فقد بلغت نقوله حوالي مائة وتسعة وأربعين نقلا.

يظهر من هذه الإحصائيات أن ابن حجر أفاد كثيرا من شرح صحيح البخاري لابن بطال، مما جعل مصنفه من أهم موارد ابن حجر في الفتح.

وهذا مايؤكد التأثير الذي كان لأهل المغرب على المشارقة من جهة، ويدفع بقوة شبهة التقليد التي لزقت بعطاءات علماء المغرب لنظرائهم في المشرق من جهة أخرى.

المطلب الرابع: نتائج التصنيف وفق اعتبار الموفق النقدي.

رأينا في تصنيف نقول ابن حجر عن ابن بطال وفق اعتبار الموقف النقدي أن هذه المواقف ثلاثة وهي: موافقة، واستدراك، واعتراض.

وإذا تأملنا هذه المواقف الثلاثة نجد أن موافقات ابن حجر لابن بطال تشكل الأغلب الأعم في تعامله مع النصوص المنقولة، فهي تمثل نحو ثمانين في المائة (80%) من مجموع النقول المعتمدة. وتلي هذه الموافقات تعقباته له، وأهم ما يميزها كونها قليلة مقارنة بموافقاته له، إذ لا تشكل إلا حوالي خمسة عشر في المائة (15%) من النصوص المنقولة.

أما استدراكاته على ابن بطال فهي تمثل نسبة قليلة بالنظر إلى النوعين السالف ذكرهما، حيث تبلغ نسبتها خمسة في المائة (5%) تقريبا.

نلمح من هذه النسب مكانة الحافظ ابن بطال ومصنفه في المصنفات الحديثية، اذ أن الحافظ ابن حجر وهو من هو في عالم التحقيق والتدقيق اعتمد على 80 % من مجموع النصوص التي نقلها عنه، بينما لم يخالفه إلا في 15 %، وهي نسبة ضعيفة إذا ما قورنت بنسبة الموافقات من جهة وروعي الخلاف المذهبي بين العلمين ابن بطال المالكي وابن حجر الشافعي من جهة ثانية دونما نسيان المدة الزمنية الطويلة التي تفصل بينهما من جهة ثالثة. ذلك أن أربعة قرون التي تفصل بينهما مدة زمنية كافية لاتساع المعرفة وتطورها.

إن عدم تأثير هذه العوامل على إفادة ابن حجر من ابن بطال تجلي العمق والدقة التي اتسمت بها اختيارات الحافظ المغربي بما أبقاها صحيحة مليحة ولو تغيرت الأزمان وتبدلت الأمصار.

خاتمة

لقد اتضح مما سلف أن الحافظ ابن بطال أسدى خدمات جليلة للحديث النبوي الشريف جعلت علماء جهابذة يهتبلون اختياراته العلمية في مصنفاتهم كما هو بين من خلال الإحصاءات المشار إليها في صلب هذا الموضوع والمتعلقة بنسب إفادة الحافظ ابن حجر من الحافظ ابن بطال .

إن دراسة موضوع «الإمام أبو الحسن بن بطال : حياته وآثاره» مكننا من استخلاص جملة من الاستنتاجات نذكرمنها :

- إن القيمة النفيسة لكتاب « شرح صحيح البخاري » لابن بطال تفرض علينا بذل الجهد في خدمته خدمة تليق بمقامه باعتباره من أهم المصادر في شرح الجامع الصحيح للإمام البخاري.

ولعل أولى الأولويات في هذا المجال العمل على تحقيقه تحقيقا علميا رصينا يعكس صورته الحقيقية.

- إن اعتماد علماء كبار على كتاب الحافظ ابن بطال لدليل ساطع على سمو مكانته في فضاء العلم والمعرفة ، ولذلك فهذا الكتاب دين على أبناء الدراسات الإسلامية، إذ أنه يتضمن دررا و كنوزا هي بحاجة إلى من يجليها لتكون أكثر تداولا.

- إن الحضور المغربي اللافت في مؤلفات المشارقة لتأكيد على المكانة المرموقة التي يحظى بها علماؤنا الأجلاء ، مما يدعونا جميعا إلى الثقة بالعالم المغربي بما هو أهل له من التقدير والتوقير والتبجيل.

وفي هذا الإطار ، يجمل بنا تعميق البحث في العطاء المغربي في تراث الأمة بما يبين به علو كعب أهل هذا القطر الغربي من العالم الإسلامي في الاجتهاد والإبداع .

وبعد :

فهذا جهد المقل لا أزعم فيه الإحاطة بكل جوانب الموضوع، لكن حسبي أني قربت لما قصدت إليه ، فإن كان صوابا فمن الله العلي القدير، وإن كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان .
والله الموفق والهادي إلى أقوم طريق.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

الإحكام في أصول الأحكام للآمدي دار الحديث.

الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي دار العلم للملايين الطبعة الخامسة مايو 1980.

تاريخ الأدب الأندلسي (عصرسيادة قرطبة) ، إحسان عباس، الطبعة الأولى، تاريخ النشر 1960 م، دار الثقافة بيروت.

تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الطبعة الثالثة دار المعارف مصر

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي تحقيق الدكتور محمد السلام تدمري دار الكتاب العربي لبنان بيروت الطبعة الأولى 1407 هـ 1987 م.

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية 1403 هـ 1983 م.

- التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي دراسة وتحقيق أحمد لبزار مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة فضالة المحمدية الطبعة الأولى 1411 هـ - 1991 م.
- التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور مجمع البحوث الإسلامية السنة الثانية الكتاب 13 ربيع الأول 1390 هـ مايو 1970 م.
- التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي دار الفكر بدمشق سنة 1410 هـ . الطبعة الأولى . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية.
- حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري أبو محمد عبد الرحمان ابن عتاب نموذجا . إعداد الأستاذ خالد الصمدي . مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . 1415 هـ - 1995 م .
- دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول - القسم الثاني الخلافة الأموية والدولة العامرية - لعبد الله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور مكتبة دار التراث القاهرة.

الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي لمحمد حجي الطبعة الثانية 1409 هـ- 1989 م .
سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.

سير أعلام النبلاء للذهبي حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط محمد نعيم العرقسوسي مؤسسة الرسالة بيروت.
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن مخلوف دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت.
شرح صحيح البخاري لابن بطال مكتبة الرشد الطبعة الأولى 1420 هـ 2000م.

شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي الطبعة التاسعة 1408 هـ / 1988 م المكتب الإسلامي بيروت.

- الصلة لابن بشكوال ضبط نصه وعلق عليه جلال الأسيوطي الطبعة الأولى 1429 هـ/2008م دار الكتب العلمية بيروت.
- علم علل الحديث من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لأبي الحسن بن القطان الفاسي للدكتور ابراهيم بن الصديق مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية 1415 هـ - 1995 م.
- عقيدة المومن لأبي بكر جابر الجزائري طبعة 1405هـ / 1985 م دار الكتب السلفية القاهرة.
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني دار الفكر.
- لسان العرب لابن منظور دار الفكر الطبعة الثالثة 1414 هـ - 1994 م.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي(1376 هـ) خرج أحاديثه وعلق عليه عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ دار التراث الطبعة الأولى 1396 هـ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة مكتبة المثنى بغداد تاريخ النشر 1941 م.

مجموع فتاوى ابن تيمية مكتبة المعارف الرباط.

مدرسة الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر في الحديث والفقه وآثارها في تدعيم المذهب المالكي بالمغرب إعداد الأستاذ محمد بن يعيش، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1414 هـ ـ 1994 م .

المصنفات المغربية للسيرة النبوية ومصنفوها للدكتور محمد يسف مطبعة المعارف الجديدة الرباط.

معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية لرضا كحالة دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

المعجم الوسيط تأليف إبراهيم مصطفى – أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر محمد النجار تحقيق مجمع اللغة العربية.

مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني المكتبة العصرية للطباعة والنشر الطبعة الأولى 1417 هـ ـ 1996 م.

منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر دار الفكر دمشق سورية الطبعة الثالثة 1412 هـ – 1992 م .

- النبوغ المغربي في الأدب العربي للشيخ عبد الله كنون الطبعة الثانية دار الثقافة.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني تحقيق د . إحسان عباس دار صادر بيروت 1968م.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي طبع بعناية و كالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول سنة 1955م دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي (ت 764هـ) تحقيق أحمد الأرناؤوط والتركي مصطفى دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان طبعة 1420هـ 2000م .

المجلات

- مجلة الإحياء ربيع الأول 1418 هـ عدد 10 من إصدار رابطة علماء المغرب.

فهرس الموضوعات

